دار طِباق للنشر والتوزيع

حي المقاطعة، مقابل وزارة الثقافة، رام الله – فلسطين

تلفاكس: 00970 2 2414808

بريد الكتروني: info@tibaq.ps

*

رسائل فدوى طوقان مع ثريا حداد

(أضواء جديدة على حياتها وشعرها)

أعدها للنشر: سمير حداد

راجعها وقدّم لها: عبد اللطيف الوراري

الطبعة الأولى، ٢٠١٨

حقوق الطبع محفوظة

*

تصميم الغلاف: **أيمن حرب**، رام الله، هاتف: 00970 59 7903309

لوحة الغلاف: **أيمن حرب**/ فلسطين

*

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any from or by any means without the prior permission of the publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطّي مسبق من الناشر

الترقيم الدولي: ISBN 978-9950-402-02-7

رسائل فدوى طوقان

مع ثريا حداد

(أضواء جديدة على حياتها وشعرها)

أعدها للنشر: سمير حداد

راجعها وقدّم لها: عبد اللطيف الوراري

طباق للنشر والتوزيع

TIBAQ PUBLISHING

الفهرس

عتبات 6
مقدمة عن سيرة فدوى طوقان ورسائلها 9
1. السيرذاتي والشعري: 9
1.1. مصباح العتمات، أو ما يبرّر فرحنا.. 9
2.1. عندما طرق الشعر العربي الباب على السيرة: 8
2. رحلة جبلية. رحلة صعبة: رحلة الحياة ورحلة الكلمات 15
1.2. طفولة العذاب 15
2.2. عزاء الشِّعر 17
3.2. شاعرة ضدّ سلطة التقاليد 20
3. الرسائل: 24
1.3. رسائل من إبراهيم طوقان ومصطفى المعداوي 25
2.3. رسائل بخطّ يدها: من فدوى طوقان إلى ثريا حداد 27
الرسالة الأولى: نفثات حبّ جريح 34
الرسالة الثانية: زهرة عبّاد الشمس 38
الرسالة الثالثة: حقيقة الحبّ 44
الرسالة الرابعة: المضحك والمأساوي 46
الرسالة الخامسة: درس التضحية 48
الرسالة السادسة: مثالب الصهيونية 51
الرسالة السابعة: إلّا الثقة 55
الرسالة الثامنة: الخطر 58
الرسالة التاسعة: هذا قدرنا 60

الرسالة العاشرة: قطرات السعادة 62
الرسالة الحادية عشرة سلامٌ من نسيم «التيمز» 64
الرسالة الثانية عشرة: الذكريات الباهرة 66
الرسالة الثالثة عشرة: صراع العقل والقلب 69
الرسالة الرابعة عشرة: السؤال الصارخ 73
الرسالة الخامسة عشرة: المشاريع والمكاره 76
الرسالة السادسة عشرة: قصّة الصداقة 79
الرسالة السابعة عشرة: رحلة إلى أمريكا 85
الرسالة الثامنة عشرة: بريد الشعر 88
الرسالة التاسعة عشرة: صورة أمريكا 90
الرسالة العشرون: إيثار وأنانية 92
الرسالة الحادية العشرون: استعادة أيام لندن 97
الرسالة الثانية والعشرون: حالة حداد 99
الرسالة الثالثة والعشرون: كيف أقضي وقتي؟ 103
الرسالة الرابعة والعشرون: سينما، رواية وسيرة 108
الرسالة الخامسة والعشرون: تضحية وعرفان 114
الرسالة السادسة والعشرون: نداء الوطن 120
الرسالة السابعة والعشرون: نخاعٌ في ثلّاجة 122
الرسالة الثامنة والعشرون: إدوارد سعيد 125
الرسالة التاسعة والعشرون: اللّه والأمل 127
الرسالة الثلاثون: سلالة السرطان 129
نماذج من رسائل فدوى طوقان وبعض صورها الشخصية مع ثريا حداد 131

عتبات

تنوير أوّل:

«لقد حاربتني الحياة ولا تزال تحاربني على جبهاتها المختلفة؛ وقد خسرتُ الكثير من معاركي معها ولكنها لم تستطع أن تهزمني قط، لأنني أقف دائما أمامها كهذا الصخر الذي يطلّ عليه الشباك المفتوح على يميني والمشرف على خاصرة جبل جرزيم.»

فدوى طوقان، من رسالة مؤرخة بـ 12/ أكتوبر/ 1977

تنوير ثانٍ:

«لقد انتهيت إلى يقين أكَّد لي أنك خير صديقة يمكن أن يصطفيها قلبي، وأنني أستطيع أن أفضي إليك دون حرج بكلّ ما بداخلي، فأتحدث بارتياح وبلا تحفُّظ، وأبرز أمامك نقاط ضعفي ونواحي نقصي، وأنا متأكدة من أنّك على استعداد لتقبل وتفهّم أخطائي الإنسانية. لقد أعطيتني الثقة بأنّك صديقة حقيقية تعتبر نفسها أنّها هي أنا، وأنّها لا يمكن في يوم من الأيام أن تأخذ ضدي ما أفضي به إليها.»

فدوى طوقان، من رسالة مؤرخة بـ 19/2/ 1982

تعتيم ثالث:

«.. كانت ثريا أختًا وصديقة وحبيبة أرتاح إليها وأفتح لها قلبي وأحدثها عن خصوصياتي بما لم أكن أتحدث به إلى شقيقة من دمي ولحمي. ومن هنا تستطيع أن تتصور مدى الفراغ الذي تركته ثريا في حياتي. إنّه فراغ موحش وأليم.»

فدوى طوقان، من رسالة تعزية إلى سمير أخ ثريا حداد مؤرخة بـ 11/10/ 1996

مقدمة

عن سيرة فدوى طوقان ورسائلها

1. السيرذاتي والشعري:

1.1. مصباح العتمات، أو ما يبرّر فرحنا..

دائمًا ما يتردد على أسماعنا من الشعراء أن سيرهم الذاتية مبثوثة في شعرهم الذي أودعوه أسرار حياتهم ومختبر كتابتهم ورؤاهم للذات والعالم، وما على القارئ المتفطن إلا أن يبذل جهده لاستخلاصها من بين أبيات القصيدة. لكن كتابة السيرة شعرًا تتطلب عملًا مضاعفًا، لأنّه يعيد بناء هذه السيرة حينًا، وحينًا آخر يسعى إلى تخييلها وكتابتها من جديد إلى حد أن تتفلت من قيدها المرجعي[1].

فليس المُهمّ، من هذا المنظور، استعادة سيرة الذات الشخصية

---

1 – انظر مقالتنا: السيرة الذاتية والشعر، القدس الأسبوعي، العدد 8114 الأحد 24 أيار/ ماي 2015، ص24.

وأحداثها الماضية منذ الطفولة، وإنّما إعادة بناء هذه السيرة وتخييلها والإيهام بها عند انفتاحها على الشعر الذي يمنحها حساسيّةً جديدة ورؤية مضاعفة في رؤيتها الذاتية للأشياء والعالم، مثلما في التعبير عن اصطراعها الدالّ وغير الواعي داخل محيطها الضيِّق والمترامي الأطراف على حدٍّ سواء.

إنّما نحن القراء نفرح أن يكتب الشاعر(ة) شيئًا من سيرته بلغة السرد الواقعية الطازجة، سواء كان سيرةً ذاتيّةً، أو رسالةً، أو محكيًّا ذاتيًّا، أو حوارًا، أو نص مفتوحًا على تجربته في الحياة والكتابة. إنّه على الأقلّ – كما قال فيليب لوجون- «لهو حلم بعض القرّاء: تلقي المسارّات، اقتحام ورشة الفنّان- كما لو لم يكن في نفوسهم، أي القراء، أنّه خيمياء يتمُّ من تلقاء نفسه، وكما لو كان الشعر يمكن أن يُفسّر بالظروف أو يُفكّك في سلسلة من الأحداث أو الوصفات، وكما لو كان المزيد من الكلمات يمكن أن يعطي جواباً عن كلمات القصيدة... إنّه بمثابة هديّة أتاحها بعض الشعراء لقرائهم»[2].

بهذا المعنى، نحن نفرح ونبرّر فرحنا. إن عتمات الشِّعر التي نقتحمها لا قِبَل لنا بها؛ لكثرتها وسيولة زمنها اللانهائي. إن تفصيلًا واقعيًّا هنا، وشاردةً من المعيش هناك، وزلة لسان تنفرج من تلقاء نفسها، هو عندنا زيت لإيقاد مصباح العتمات.

2 – فيليب لوجون، السيرة الذاتية والشعر، ترجمة عبد اللطيف الوراري، مجلة أوراق فلسطينية، العدد 11 شتاء 2016، ص156.

2.1. عندما طرق الشعر العربي الباب على السيرة:

نتيجةً للتحوُّلات المعرفية والجمالية التي أطلقتها حركة الشعر الحُرّ، وتفاعلت على إثر السجال الذي خلقته في المشرق والمغرب على التوالي، وجد الشعراء المحدثون في السرد طريقة مواتيةً للتعبير عن أفكارهم وآرائهم الخاصة بالشعر الجديد، فشرعوا يكتبون نُصوصًا وشهاداتٍ عن تجاربهم الشعرية، ضمن سياق الدفاع عن هذا الشعر وتقييم منجزه الكتابي وتجربته ككل. مثلما كتب آخرون بيانات ومقدّمات تنظيرية لدواوينهم الشعرية تتضمّن مجمل رؤاهم من حركة الشعر الحديث، ومواقفهم من الطريقة الجديدة التي تختطُّها سبل شعرهم، ولم تَخْلُ من بُعْدٍ سيرذاتيٍّ[3].

ولم يقلَّ عن هذا أن نجد طائفة أخرى من النصوص الرسائلية والحوارية والبيوغرافية والسيرذاتية، التي تعبرها عناصر

3 – تأتي المقدمات والبيانات التي كتبها الشعراء المحدثون بمثابة إسهام في بلورة مشروعهم الإبداعي وموقعهم من الشعر الحديث، سواء داخل حركة الشعر الحر أو ما تلاها من اتجاهات قصيدة النثر والكتابة الجديدة، كما فعل بدر شاكر السياب في «أساطير» (1950)، ونازك الملائكة في «شظايا ورماد» (1949)، ونزار قباني في «طفولة نهد» (1948)، وفدوى طوقان في «التمرد على البيت» (1953)، وأنسي الحاج في «لن» (1960)، ويوسف الخال في «مفهوم القصيدة الحديثة» (1963)، وأدونيس في «بيان الحداثة» (1992–1979)، ومحمد بنيس في «بيان الكتابة» (1980)، وكل من قاسم حداد وأمين صالح في «موت الكورس» (1984). انظر للاطلاع والتوسع: محمد لطفي اليوسفي، البيانات (جمع وتقديم)، سراس للنشر، تونس، 1995. ومنيف موسى، نظرية الشعر عند الشعراء النقاد في الأدب العربي الحديث من خليل مطران إلى بدر شاكر السياب (دراسة مقارنة)، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط.1، 1984.

وإشارات وإفادات سيرذاتية تخصّ سيرة أنا الشاعر وسيرة قصيدته وتجربته في آن، كتبها الشعراء بأنفسهم أو جُمِعت بعد مماتهم، أو كتبها غيرهم من وحي تجاربهم[4].

ضمن هؤلاء الشعراء، نجد الأصوات بصيغة المؤنث حظُّهن من

4 – رسائل السياب، ماجد السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994. الرسائل، محمود درويش، سميح القاسم، دار توبقال، الدار البيضاء، 1990. بين المعداوي وفدوى طوقان: صفحات مجهولة في الأدب العرب، رجاء النقاش، دار الشروق، 2009. خليل حاوي، رسائل الحب والحياة، دار النضال للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، ط.1، 1987. جهاد فاضل، أسئلة الشعر: حوارات مع الشعراء العرب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1992. حوار مع أدونيس: الطفولة، الشعر، المنفى، صقر أبو فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.1، 2000. أدونيس: الحوارات الكاملة (1،2)، أعدها للنشر أسامة إسبر، بدايات للنشر والتوزيع، دمشق، ط.2، 2010. محمود درويش: الغريب يقع على نفسه، حاوره عبده وازن، رياض الريس للكتب والنشر، 2004. علي جعفر العلاق: حياة في القصيدة، قدم له وحاوره عبد اللطيف الوراري، دار كنعان، دمشق، ط.1، 2015. عبد الكريم الطبال ناسك الجيل (حوار في الحياة والشعر)، قدم له وحاوره عبد اللطيف الوراري، منشورات سليكي أخوين، طنجة، ط.1، 2016. سركون بولص، سافرتُ ملاحقًا خيالاتي (حوارات)، منشورات الجمل، بيروت–بغداد، ط.1، 2016. محمد شمسي، سارق النار: رحلة في حياة الشاعر عبد الوهاب البياتي، مطبعة الشعب، بغداد، 1985. محمد بنيس، كتابة المحو، دار توبقال، الدار البيضاء، 1996. محمد بنطلحة، الجسر والهاوية (سيرة شعرية)، فضاءات مستقبلية، الدارالبيضاء، ط.1، 2009. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط.2، 1985. الرحلة الأصعب (سيرة ذاتية)، دار الشروق، عمان، ط.1، 1993. جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية)، دار الآداب، بيروت، ط.1، 2009. شارع الأميرات (فصول من سيرة ذاتية)، دار الآداب، بيروت، ط.1، 2007. محمد علي شمس الدين، كتاب الطواف– سيرة مزدوجة، دار الحداثة، بيروت، ط.1، 1987. صلاح نيازي، غصن مطعم في شجرة غريبة، مؤسسة الإنتشار العربي، 2002. مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء– بيروت، ط.4، 2011. سليم بركات، السيرتان، دار الجديد، بيروت، 1998. محمد بنطلحة، الجسر والهاوية (سيرة شعرية)، فضاءات مستقبلية، ط.1، 2009. سيف الرحبي، الصعود إلى الجبل الأخضر، منشورات دبي الثقافية، أكتوبر 2012. غازي القصيبي، سيرة شعرية، تهامة للنشر والمكتبات، 1424ه. محمد عفيفي مطر، أوائل زيارات الدهشة. هوامش التكوين: سيرة ذاتية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط.1، 2005. عبد الكريم الطبال، فراشات هاربة: سيرة ذاتية، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 2007. محمد الميموني، كأنها مصادفات: تداعيات سير ذاتية، منشورات سليكي أخوين، طنجة، ط. 1، 2013.

السيرة، سيرة الذات وسيرة القصيدة، نادر إذا قيس بغيرهم؛ فمثلًا، لم تهتم نازك الملائكة - رغم ريادتها الحاسمة- بالتأريخ لتجربتها في كتاب مستقلّ، وإن كانت تركت أمشاجًا من هذه التجربة بين مقدّمات مجمل مجاميعها الشعرية، وكشفت بعضها على استحياء في «لمحات من سيرة حياتي وثقافتي». وقد استطاعت حياة شرارة أن تختلس «صفحات من حياة نازك الملائكة» كانت ستظلُّ مطوية في كتاب المجهول[5].

ومثل نازك إلى حد ما، كانت الشاعرة فدوى طوقان نفسها ميّالةً إلى مصادقة النفس والعزلة والتوحد، جادّة وقليلة الكلام. فقد اعتكفت على عالمها الداخلي ومشاعرها الخاصة، بعد أن توالت عليها المحن في حياتها؛ إذ توفي والدها ثم أخوها ومعلمها إبراهيم طوقان، وأعقب ذلك نكبة فلسطين 1948، مما ترك أثره البارز في نفسيتها وانعكس على باكورة شعرها «وحدي مع الأيام» (1952). ثم بعد ذلك عُرف عنها نشاطها الثقافي والنضالي، ولاسيما بعد نكسة 1967، جنبًا إلى جنب محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وإميل حبيبي وغيرهم.

وفي لحظة مبتهرة من الزمن، جرى قلمها بتدوين سيرتها الذاتية على صفحات مجلة (الدوحة) في وقت متأخر من عمرها؛ أي بين

5 - صفحات من حياة نازك الملائكة، حياة شرارة، رياض الريس، ط.1، 1994.

شهري من عام . وكانت السيرة مفاجئة لكثيرين، ولقيت استحسان من قرأها، فلم يمنعها المجتمع الذكوري المحافظ الذي نشأت فيه من أن تكشف عن جرأة مدهشة في البوح والاعتراف.

كذلك كتبت فدوى الرسائل ونفّست بها عن جروحها الداخلية. ولم تكن كثيرة الظهور في وسط الصحافة الأدبية؛ إذ لم يزد عدد الحوارات التي أُجريت معها بين عامي 1962 و2003، بالكاد على العشرة[6].

6 – سبق أن جمع يوسف بكار هذه المقابلات في كتاب سمّاه "حوارات فدوى طوقان"، وعددها اثنتا عشرة مقابلة نشرت في صحف ومجلات عربية مختلفة. انظر: يوسف بكار، حوارات فدوى طوقان، عمان، 2010.

2. رحلة جبلية. رحلة صعبة: رحلة الحياة ورحلة الكلمات

1.2. طفولة العذاب

تُعدّ فدوى طوقان من الشواعر القلائل اللائي اهتممن بفنّ السيرة[7]، بل قدّمتْ، في نظر رجاء النقاش، «شيئًا جديدًا هو التعبير بصدق وصراحة عن هموم المرأة العربية»[8]. فقد أصدرت الشاعرة – تِباعًا- جزئين من سيرتها الذاتية، حكت في أوّلهما المعنون بـ«رحلة جبلية رحلة صعبة» (1985)، ذكريات طفولتها التي توزّعت بين بيت العائلة الذي تحول إلى سجن بعد أن فقدت فيه الدفء، والمدرسة التي عرفت فيها مذاق الصداقة وأشبعت الكثير من حاجاتها النفسية التي ظلت جائعة في البيت حتّى صارت المكان الأحبّ إلى نفسها، ثُمّ مشاهدات على طبيعة نابلس الخلابة والمباهج الموسمية مع علياء رفيقة طفولتها. وفي أوائل الستينيات، سافرت إلى إنجلترا بإيعاز من ابن عمها فاروق، فأخذت دوراتٍ مكثفة في اللغة الإنجليزية بجامعة أكسفورد العريقة، واكتشفت المتاحف

7 – ذاع في الآونة الأخيرة مصطلح (السيرة الذاتية النسائية) بعد التراكم المُطّرد الذي حققته المرأة العربية في كتابة سيرتها بأشكال مختلفة (خواطر، مذكرات، يوميات..) أبرزت فيها مسيرة كفاحها داخل معترك الحياة السياسية والسوسيوثقافية منذ أواسط القرن العشرين على الأقل. انظر: أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر (دراسة في نماذج مختارة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2005، ص35-34.

8 – من كلمة على ظهر غلاف «رحلة جبلية رحلة صعبة»، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط.2، 1985.

والمسارح والمتنزهات والأرياف والساحات، وأعجبت برقي هذا البلد ونمط حياة أهله وحضارتهم. وعندما عادت، بعد عامين، إلى مدينتها نابلس وجدت الضفة الغربية قد سقطت بيد الاحتلال في حزيران/ يونيو 1967، فصدمت وقلّبت صفحة جديدة من شعرها الذي كان دائم التأثر بالتحولات المأساوية المستمرة في فلسطين منذ اشتعال الثورة عام 1936، وأحيانًا كان شعرها يعجز حتى وهي في حالة الفوران العاطفي.

في سردها لهذه الذكريات التي استغرقت طفولتها وشبابها وبواكير تجربتها الشعرية، وجدت فدوى طوقان نفسها في خضمّ مشاعر متناقضة وسط مجتمع نابلس الذكوري وبيئته الاجتماعية المحافظة، وعائلة كثيرة العدد أذاقتها الحرمان والقسوة والظلم. فقد أدّت الثمن لوحدها، بشجاعة، عما اقترفه الآخرون ضدّها، سواء من الأمّ التي كادت تجهض نفسها وهي تحمل بفدوى التي جاءت إلى العالم بغير شهادة ميلاد[9]، أو من أبيها الذي كان يبعث في نفسها الضيق منذ

9 – تحكي فدوى أنها «خرجت من ظلمات المجهول إلى عالم غير مستعد لتقبلي, أمي حاولت التخلص مني في الشهور الأولى من حملها بي». وعندما كبرت سألت أمها عن تاريخ مولدها فأجابتها بقولها «كنت يومها أطهي (عكوب)، هذه هي شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها. لقد أنسيت الشهر والسنة، ولا أذكر إلا أنني بدأت أشعر بآلام المخاض وأنا أنظف أكواز العكوب من أشواكها» (ص13–12)؛ ثم استدركت قائلة: «أنا أدلك على مصدر موثوق حيث يمكن التيقن من عام ميلادك؛ فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل». وتقول فدوي: «لم يبق إلا أن أستخرج شهادة ميلادي من شاهد قبر(...) واتفقنا على أن تصطحبني في اليوم التالي إلى المقبرة الشرقية حيث يرقد هناك ابن عمها الشهيد كامل عسقلان»(ص15–14). وكان قد استشهد في عام 1917 وهو التاريخ الأرجح لميلاد الشاعرة.

الطفولة، أو من أخيها يوسف الذي أرغمها، بفعل خطأ التربية وسوء الفهم، على مغادرة المدرسة وهي ابنة اثني عشر ربيعًا بعد واقعة زهرة فُلٍّ تسلَّمتْها من فتى يافع، فكأنّها «اللعنة التي تضع النهاية لكل الأشياء الجميلة»[10]، أو عمتها الشيخة المتسلطة والشريرة رغم المظهر الديني الذي خلعته على نفسها، وابن عمها الكبير رآها وهي ترتدي ثوبًا جديدًا فقام بتمزيقه بداعي الحشمة.

2.2. عزاء الشِّعر

لقد قادتها هذه الطفولة المعذّبة إلى الانطواء على النفس والعزلة والاستغراق في أحلام اليقظة التي كانت تُحلّق بها خارج أسوار البيت/ السجن. ووسط الشعور الذاتي الضاغط والساحق بالظلم، تولّدت في نفسها رغبة الانتحار لممارسة حريتها المستلبة والانتقام من ظلم الأهل، وصرفها عنه البحث عن بديلٍ طبيعيّ مُتسامٍ تتجاوز به أو يرتفع بها عن إكراهات المعيش اليومي[11]، فمالت فدوى إلى العزف والغناء إذ وجدت

10 – فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، ص55.

11 – يذهب حاتم الصكر إلى فرضيّة التعويض في كتابة فدوى طوقان لسيرتها الذاتية، سواء على مستوى الأحلام أو على مستوى الحياة ذاتها وعلاقتها بالرجال، وهو ما يثبت في نظره الطابع السيزيفي للسيرة الذاتية لفدوى طوقان. انظر: حاتم الصكر، الذات المحوة بالكتابة: حول الصراع السيزيفي في سيرة فدوى طوقان الذاتية: رحلة جبلية– رحلة صعبة، مجلة راية مؤتة، جامعة مؤتة، الأردن، المجلد2، العدد1 لسنة 1993. كتابة الذات –دراسات

فيهما «تعبيرًا ومخرجًا رمزيًّا لحاجاتي العاطفية المكبوتة»[12]. مثلما اكتشفت، بميلها الفطري، فنّ الشعر الذي أكمل مهمة إطلاق الطاقة الحبيسة في داخلها. أخذت تتعلم الشعر سرًّا وتتلقى لحظات إلهامه الأولى وإيقاعاته الموحية، وكان ذلك يساعدها على التماسك والتوازن الذاتي، إذ تقول: «كان هناك كتاب اسمه (الكشكول) يضم مجموعة من الطرائف والشعر والأخبار الأدبية والتاريخية. وفي هذا الكتاب كان لي أول لقاء مع قصيدة «أيها الساقي إليك المشتكى». وضعتني القصيدة أو بالأحرى الموشح في دائرة سحرية غامضة، لعلَّ منشأها موسيقاه الخارجية المنبعثة من طبيعة الوزن، والمتميزة بتنوع القوافي، مع الالتزام بقافيتي الشطرين الأخيرين من كل مقطع، ممّا أكسب الموشّح إيقاعًا يريح السمع ويهدهد النفس. أما الكلمات فكان معظمها بالنسبة لي محمّلاً بمعانٍ انفعالية نفسانية غير التي قصدها الشاعر»[13].

تتخيّل فدوى نفسها وقد أصبحت شاعرةً فتغيب في إنشادها للشعر إلى حالة أشبه بالجذب الصوفي. فقد التمست السلوى والعزاء في حفظ الشعر وإنشاده وكتابته والسموّ به: «كان داخلي يمتلئ أحيانًا بمشاعر غير واضحة، وبانفعالات مبهمة،

في وقائعية الشعر، دار الشروق، عمان، ط.1، 1994، ص200.

12 – رحلة جبلية رحلة صعبة، ص38.

13 – المرجع نفسه، ص64.

خصوصًا إذا استمعت إلى الموسيقى والغناء. فهنا كنت أشعر بِميْلٍ إلى التعبير عن شيء ما، شيء أحس به ولا أفهمه»[14].

تأثّرت الشاعرة في بداياتها بكتاب (العهد القديم)، وأخيها إبراهيم طوقان، وبالشعراء القدماء الذين أصبحوا يعيشون معها ويتحدثون إليها، ولاسيما بأبي فراس الحمداني وبابن الرومي الذي شدّها بحزنه ورقة شعوره وعاطفيّته المسرفة؛ مثلما تأثّرت بكتابات أحمد حسن الزيات وبشعراء حركة الإحياء من أمثال أحمد البارودي وشوقي بإيعاز من أخيها، على نحو جعل شعرها يتّسم بالديباجة والتعابير الفخمة، وهو ما انتبه إليه د. عمر فروخ صاحب مجلة «الأمالي» البيروتية عندما نشرت فيها إحدى قصائدها باسم مستعار: «دنانير». وقدّم لها بقوله: «في الوقت الذي نرى فيه كثيرين من الرجال ينظمون شعرًا مؤنّثًا رقيقًا، نرى فتاة في الخطوات الأولى من حياتها تعيد إلى خيالنا ذكرى أبي تمّام والمتنبي وتطلع علينا بديباجة شوقي»[15]. غير أن عمود الفحولة الذي طبع شعرها بقوة السبك والجزالة، سرعان ما كسّرتْه بدفق لغتها وبوحها العاطفي ونبرة الحزن التي تشفُّ عنها، بعد تأثُّرها بالشعراء المهجريّين.

وقد وجدت الشاعرة في شقيقها الشاعر إبراهيم طوقان

14 – نفسه، ص66.

15 – نفسه، ص89.

ملاذها الوحيد الذي حرّرها من كل المنغصات، أو- بحسب تعبيرها- «المصحّ النفسي الذي أنقذني من الانهيارات الداخلية»[16]. لقد مثّل لها الأمل وبناء الثقة، إذ كتبت تقول: «وبالنسبة إلى وضعي وواقعي في البيت أصبحت أقف الآن بين قُوّتين، بين إيمان إبراهيم بي الذي كان يشحنني بالثقة في النفس وباحترام الذات وبالأمل في أنني سأكون (شيئًا) ذا قيمة في يوم ما، وبين عمل الآخرين المستمر على زعزعة هذه الثقة. وشرعتُ أتراوح بين هاتين القوتين بقدر ما في طبيعتي من السلبية والإيجابية، وكان عليّ أن أخوض بالتالي في صراع مع تطلعاتي والواقع الذي أوجدني فيه مجتمع متخلف وأقارب لم يتحرر تفكيرهم قط»[17]. فجعت فدوى بموت أخيها مُبكّرًا، إلا أن العواطف والقيم التي غرسها في نفسها أخوها بقيت تتجدّد في حياتها وشعرها معًا.

3.2. شاعرة ضدّ سلطة التقاليد

إنّ ما عايشته الشاعرة وخبرته في مسقط رأسها، الذي نعتته بـ«بلد التعصب والتقاليد العتيقة»، وتستعيده في سيرتها بمرارة وشعور بالظلم، يكشف كيف تحوّلت أطوار حياتها كأنثى إلى

16 - نفسه، ص62.

17 - نفسه، ص99.

معركة للكفاح المرير من أجل بناء الشخصية وإثبات الذات وتحرير معنى جسدها، ولن يكون شعرها إلا ناتجها والمُعبّر عنها على نحو أصيل وخلّاق؛ وقد سوّغت غايتها الأسمى من كتابة سيرتها الذاتية بقولها: «وهي أن الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنىً وقيمة»[18].

لهذا، تعترف بأنّها لم تفتح خزانة حياتها كلّها، إذ ليس من الضروري أن تنبش كل الخصوصيات صونًا لها من الابتذال، فما كان تسعى إليه في سيرتها الذاتية هو جانب الكفاح في شخصيتها التائقة إلى الانطلاق خارج «زمان القهر والكبت والذوبان في اللا شيئية» وسجن البيت[19]. وبموازاة مع هذا التوق النفسي والفكري لدى الشاعرة، فإنّها سعت باستمرار إلى تجديد أسلوبها الفنّي بشكل يستجيب لدواعي الانطلاق والتحرر، ويفسح المجال لخطاب الإفضاء والبوح في كتابتها الشعرية ابتداءً من الشكل التقليدي فالرومانسي ثُمّ التفعيلي، بحيث أمعنت في الشعر العاطفي والغنائي الشجيّ الذي تعبره تراكيب عفوية بسيطة وصورٌ مجازية واستعارات بديلة كما تجلّت، بوضوح، من خلال عناوين دواوينها: «وحدي مع الأيام» (القاهرة 1952)، «أعطنا حبًّا» (بيروت 1960)، «أمام الباب المغلق» (بيروت 1967)، «اللحن الأخير» (عمان 2000).

18 – نفسه، ص9.

19 – نفسه، ص10.

في هذا الإطار، تتّسم كتابتها السيرذاتية بجرأة نادرة وصدقٍ لافت للانتباه وحسٍّ شاعري مرهف، وهو ما غذّى سيرتها بشفافيّة البوح. وهذا ما يمكن اكتشافه تحديدًا في متواليات من الخطاب النسواني الذي يعبّر عن رغبة الشاعرة في البوح بعاطفتها وحُبّها، والإفصاح عن تفتُّحات جسدها، والتمرُّد على تقاليد المجتمع البالية ونقد عيوبه وتفاهاته. وهذا الخطاب لا يخصُّ الشاعرة وحدها، بل جيلًا بأكمله من نساء تلك المرحلة وبعدها. فهي استطاعت، في الكثير منها، أن تتعمق أغوار نفسيّتها وتكشف لنا عن أسرار نفسها.

وفي إحداها، تستعيد واقعة زهرة الفُلّ التي ارتبطت بالحبّ الأول، وظلّت رائحتها تعبق بقلبها لسنين طويلة، ومعها تستعيد «حدّة الانفعالات التي بعثتها في نفسي، والدهشة التي تولدت من تلك الانفعالات هي من الأشياء التي لا تنسى أبدًا»[20]. وعندما وصلت إلى سن البلوغ، كتبت بمزيج من الدهشة والحيرة في عالم محافظ لا يتداول الحُبّ في يومياته: «ولفت نظري تفتُّح جسدي.. خفت، وخجلت. وأربكني نمو الصدر الذى أصبح ملحوظًا. فكنت أعمل على إخفاء هذا النمو. ورحت أراقب هذا الأمر كله بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل أستحق العقاب من أجله.. ولدى وصولي إلى

20 – نفسه، ص54.

تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئًا عن الحب على الإطلاق، فلم يكن هذا الموضوع مما يتناوله أفراد الأسرة على مسمع منّا نحن الصغار»[21].

لقد عبّرت فدوى عن شؤونها الذاتية كأنثى بوضوح وشفافيّة في مجتمع ذُكوريّ الثقافة، و«لا تحتاج ثورة المرأة – كما قال محمود درويش- على سجنها إلى نظرية، فمن حسيَّتها يتشكَّل وعيها الأول بذاتها. وهكذا كانت رحلتها الجبلية، تفسيرًا لخلفية شعرها الرومانتيكي المبشر بتمردها على ما أعدت لها «الرجولة» من مصير. وهكذا ارتبط شعرها، منذ البداية، بإعلان حقها في الحب، أي حقّها في الحرية»[22].

في «الرحلة الأصعب» (1993)، وهو الجزء الثاني من سيرتها الذاتية، يغيب الذاتي الشخصي والحميمي، وكأنّ فدوى طوقان شغلها الاحتلال الإسرائيلي عن نفسها، وأرادت من سيرتها في سردها ذي النفس السياسي والتوثيقي أن تكون شهادة جيل على وقائع المأساة الفلسطينية بفصولها المريرة وخيباتها المتكررة حتى بداية التسعينيات من القرن الماضي[23].

---

21 – الصفحة نفسها.

22 – محمود درويش، حيرة العائد (مقالات مختارة)، رياض الريس، ط.2، 2009، ص78.

23 – اعتمدت فدوى طوقان في كتابة سيرتها على الذاكرة وسجلّ الأوراق المتاح، وقد فاتتها أشياء لها أهميتها قام باستدراكها د. يوسف بكار في كتاب بعنوان: الرحلة المنسية. فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية: دراسة ونصوص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.1، 2000.

3. الرسائل:

رغم ما قيل بأنّ الثقافة العربية في تاريخها ثقافة حجب وستر، إلا أن آدابها تكشف عن كونها أُمّة بوح واعتراف، سواء في شعرها أو في نثرها[24]. ولعل أدب الرسائل أو فنّ الترسل من بين هذه الآداب التي لا تخلو من سرد الاعترافات وكشف الأمور الشخصية بين المترسّلين ممن ملكوا البلاغة وقلّبوها على وجوهها للتعبير والتأثير. فكان من الرسائل ما جاء في الشوق، أو الاستعطاف والاعتذار، أو النصح والمشورة، أو الملامة والعتاب، أو الشكوى، أو العيادة، أو التهاني، أو التعازي والتأبين، إلخ. وقد قيل إن الرسائل هي «مخاطبة الغائب بلسان القلم»، وإنّها «ترجمان الجنان، ونائب الغائب في قضاء أوطاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد» كما نجد في كتب الأولين. وفي العصر الحديث، شرع الأدباء في عرض قصصهم والبوح بتجاربهم في الكتابة والحياة ضمن

24 – ثمة مغالطات شاعت في الأدب الغربي وأشاعها الفكر الاستشراقي، أو الكولونيالي ورديفه الإغرابي الذي يؤمن بتفوُّق الغرب، والقائلة بأنّ أدب «السيرة الذاتية والاعتراف» الذي يتمحور حول البوح بهدف التكفير عن الخطايا التي يرتكبها الإنسان المُذنب، إنّما هو نوع غربي مسيحي خالص لم يعرفه غير الأوربيّين، وأنّ مسألة السيرة الذاتية العربية قد تأثرت بالفكر الأوربي، وأن هذه السيرة نفسها كانت تلغي أنا الفرد لحساب أنا الجماعة، مثلما أنّه كان ينقصها العمق السيكولوجي، كما نجد ذلك عند المستشرقين بالمعنى الذي يعطيه لهم إدوارد سعيد، وعند أبرز النقاد من أمثال: جورج غوسدورف، وجورج ماي، وروي باسكال، وجون ديجو وغرونباوم. انظر مقالنا المعنون ب: السيرة الذاتية والإسلام، القدس العربي، السنة الثامنة والعشرون العدد 8675 الثلاثاء 13 كانون الأول (ديسمبر) 2016، ص12.

رسائل شخصية كانوا يتبادلونها بينهم ومع مجايلي عصرهم، قبل أن تغزو التكنولوجيا مخادعهم وتجفف أقلامهم إلا فيما ندر.

1.3. رسائل من إبراهيم طوقان ومصطفى المعداوي

كتبت فدوى الرسالة وجلست إليها مثلما تجلس إلى القصيدة، فأطلقت فيها عنان بوحها واعترافها لمن تحبّ وتثق فيه. غير أنّها لم تكشف عن هذه الرسائل قيد حياتها، ولا ظهر لها أثر بعد موتها؛ كأنّ ثمة أسرارًا ومواضيع شخصية لا تريد من العامة أن تصل إليها. وفي المقابل، أظهرت الرسائل التي وصلتها ممن أخلصوا لها ومحضوها الحبّ، ولاسيما من أخيها إبراهيم طوقان ومصطفى المعداوي.

فقد نشر الشاعر الفلسطيني المتوكل طه مجموعة من الرسائل التي وصلتها في ميعة الصبا، من أخيها الأكبر إبراهيم طوقان (ت 1941). كانت الرسائل بمثابة حوار بين شقيقين جمعتهما رابطة الدم وكتابة الشعر؛ حيث كان الشقيق الأكبر يحبّ شقيقته الصغرى ويتطلع إلى أن تكون (شيئًا) ذا قيمة في يوم ما، فكان يعلمها النحو والصرف وكيفية نظم الشعر وتناول الموضوعات[25]. وفي أواسط السبعينات، ظهر كتاب تحت عنوان: «بين المعداوي

25 – المتوكل طه، فدوى طوقان: الرسائل والمحذوف، وزارة الثقافة- رام الله، ط.1، 2010.

وفـدوى طوقـان صفحـات مجهولـة في الأدب العربـي المعاصـر»، وثّـق فيـه الناقـد المصـري رجـاء النقـاش قصّـةَ حـب يزعـم أنهـا جمعـت بـين فـدوى وأنـور، لكـن عـن طريـق الرسـائل وحسـب، علـى غـرار رسـائل جبـران ومـي زيـادة. فهمـا – كمـا يقـول رجـاء النقـاش- «لـم يلتقيـا علـى الإطـلاق وإنمـا اكتفيـا بتبـادل الرسـائل وكتابـة الأشـعار حـول هـذا الحـبّ»[26]. بيـد أن الكتـاب لا يتضمـن سـوى رسـائل أنـور المعـداوي إلـى فـدوى طوقـان، وهـي نحـو سـبع عشـرة رسـالة متفاوتـة في الحجـم، فيمـا أتلـف أنـور قيـد حياتـه رسـائل فـدوى وفـاءً بعهـد قطعـه علـى نفسـه. وتعتـرف فـدوى فيمـا بعـد أنّـه «كان هنـاك حـب حقيقـي، وعبـرت عنـه بأكثـر مـن قصيـدة»[27]. وفي رسـالة إلـى رجـاء النقـاش، تعتـرف بأنهـا أسـاءت النيـة بحـبّ أنـور لهـا، بسـبب انقطـاع مراسـلاته المفاجـئ بـين حـين وآخـر. وحـين علمـت بحقيقـة مرضـه الـذي عجّـل بموتـه، ملأهـا «حـزن شـديد، ونـدم قاتـل» علـى حـد تعبيرهـا[28].

لقـد نشـر رجـاء النقـاش هـذه الرسـائل التـي كانـت بحـوزة فـدوى، وحلّـل حيثياتهـا ومـا فيهـا مـن أبعـاد ومعـانٍ، وهـو يريـد بذلـك «الخـوض في الحيـاة الشـخصية للأدبـاء» لتفسـير معطـى غامـض في حيـاة هـذا أو تلـك، مـن غيـر إسـفاف أو بدافـع ثرثـرة وفضـول.

26 – رجـاء النقـاش، بـين المعـداوي وفـدوى طوقـان صفحـات مجهولـة في الأدب العربـي المعاصـر، دار المريـخ للنشـر، الريـاض، ط.2، 1410ه/ 1990م، ص27.

27 – المرجع نفسه، ص13.

28 – نفسه، ص19.

2.3. رسائل بخطّ يدها: من فدوى طوقان إلى ثريا حداد

.1.2.3

عدا عن هذه الرسائل المعدودة، لم تظهر في حياة فدوى طوقان رسائل شخصية غيرها، ولا ظهرت حتى بعد موتها عام 2003. فقد كانت – كما قلنا- ميالة إلى مصادقة النفس، متكتمة على أسرار عالمها الشخصي، هيّابة من أن يذيع سرٌّ منها بين الناس. ولهذا، كانت تتحفّظ إلى حدّ ما في منسوب بوحها الرسائلي، أو تطالب من تراسلهم أن يقطعوا عهدًا بحفظها، أو يتلفوها إذا لزم الأمر كما في حالة المعداوي. حتى قادتنا الظروف إلى بعض رسائل فدوى بخطّ يدها الجميل، لا تزال محفوظةً تنبض بكلّ كلمة من عالمها الذاتي الخصيب والرحب. لكن كيف اهتديت إلى هذه الرسائل؟ وهل يلزم نشرها ضدًّا على رغبة صاحبتها؟ وهل من مسوّغ أخلاقي مضاد في أن تظل الرسائل «طيّ الكتمان»؟

.2.2.3

اتّصل بي الإعلامي المقيم في أمريكا الأستاذ الفاضل سمير حداد، وكان قد طلع للتوّ على مقالتي عن الرسائل التي تبادلها جبران خليل جبران ومي زيادة، ولمس اهتمامي بالأدب الشخصي والسيرذاتي، فحدّثني عن أخته الأديبة ثريا حداد

التـي اهتمـت بـأدب مـي زيـادة ودرّسـته لطلبتهـا عندمـا كانـت قيـد حياتهـا أسـتاذة اللغـة العربيـة لغيـر الناطقـين بهـا في جامعـة جونـز هوبكنـز، وسـجّل معـي حلقـة في برنامجـه الإذاعـي «شـموع عربيـة» (الثلاثـاء 18 أكتوبـر 2016) الـذي يـذاع مـن ديترويـت في أمـر هـذه الرسـائل وحقيقتهـا وقيمتهـا الفنيـة. ثـم مـرَّ وقـت قبـل أن يخبرنـي بـأنّ أختـه الأديبـة كانـت لهـا مراسـلاتٌ بينهـا وبـين شـعراء وأدبـاء مشـاهير، بمـن فيهـم ميخائيـل نعيمـة الـذي اشـتغلت علـى شـعره في أطروحتهـا المعنونـة بـ «الأبعـاد الإنسـانية في أدب نعيمـة»، وفـدوى طوقـان ونـزار قبانـي وعيسـى الناعـوري وروكس بـن زائـدة العزيـزي وغيرهـم. وهـذه المراسـلات تعـود إلـى فتـرة رئاسـتها لرابطـة راهبـات الورديـة في عمـان منـذ سـتينيات القـرن العشـرين، حيـث كانـت تسـتضيفهم وترتّـب لهـم أماسـي شـعرية ومحاضـرات في الأدب والفكـر، وقـد اسـتمرت إلـى حـين رحيلهـا عـام 1996 بعـد معاناتهـا مـع المـرض.

فألححـت عليـه بنشـرها؛ لأنّ هـؤلاء الأدبـاء شـخصيات عامـة ومعروفـة تملكهـا الحيـاة الثقافيـة والأدبيـة أكثـر ممـا يملكهـا الأهـل والأصدقـاء، علـى حـد تعبيـر رجـاء النقـاش. كمـا أنّ مـن حـق القـراء أن يغنمـوا شـيئًا مـن سـيرهم الذاتيـة ليـزداد فهمهـم لـلأدب الـذي خلّفـوه وراءهـم، الأدب الـذي لا ينفصـل ألبتّـة عـن مـزاج كل منهـم وموقفـه الشـخصي ورؤيتـه للـذات والعالـم. ووافـق

على ذلك، وقرّرنا أن نبدأ برسائل فدوى طوقان لمناسبة الاحتفاء بذكرى مائويّتها (1917–2017).

.3.2.3

أرسل إليّ سمير على البريد نُسخًا من رسائل فدوى طوقان، وبعضها عبارة عن بطائق معايدة وإحداها بطاقة حبّ شعرية. ووجدت أن العلاقة بينهما بدأت بتاريخ 1/10/1961، حينما راسلت ثريا حداد بصفتها رئيسة رابطة راهبات الوردية الشاعرة فدوى طوقان، أو «الشحرورة المغرّدة على جبال جرزيم» كما وصفتها، بشأن إقامة أمسية شعرية في عمان بحضور عضوات الرابطة وأفراد من السلك التربوي ولفيف من الأدباء والعلماء. وقد استجابت الشاعرة للدعوة وتعرفت على «الروح اللطيفة» للآنسة ثريا التي شكرتها على «تلك اللحظات التي استمتعت خلالها بعذوبتها ورقتها» كما جاء في رسالتها المؤرخة بـ14/11/1961.

ثُمّ لا نعثر بعد ذلك على أول رسالة شخصية تكتبها فدوى إلى ثريا إلا بتاريخ 2/9/1977، كأنّ صدق العاطفة يحتاج إلى وقت حتى ينضج ويربّي بين الذات وآخرها جسر ثقة ومحبة، بل إني اكتشفتُ أن هذا الصدق كان لا يزداد إلا رسوخًا فيكسب الرسائل شفافيّة عالية هي مزيج بين رهافة الحس ووفاء الطبع وأصالة التكوين الذي انطوت عليه روح الشاعرة.

لهذا، لم تخْلُ الرسائل من بوح واعتراف، ليس لأن فدوى تخاطب أديبة ومثقفة من بنات جنسها تقدر مكانتها وتكنّ لها الاحترام، بل كذلك وجدت فيها المرآة التي تعكس أخاديد نفسها وجراحها الشخصية، كما وجدت أنّها شربت من نفس الكأس المرّة التي شربت منها، إلى حد أن يتماهى الأنا والآخر ويتوهجان عبر رهان الغيرية.

في واحدة من رسائلها، مؤرخة ب 19/2/1982، تعترف فدوى لثريا بقولها: «لقد انتهيت إلى يقين أكَّد لي أنك خير صديقة يمكن أن يصطفيها قلبي، وأنني أستطيع أن أفضي إليك دون حرج بكلّ ما بداخلي، فأتحدث بارتياح وبلا تحفُّظ، وأبرز أمامك نقاط ضعفي ونواحي نقصي، وأنا متأكدة من أنّك على استعداد لتقبل وتفهّم أخطائي الإنسانية. لقد أعطيتني الثقة بأنّك صديقة حقيقية تعتبر نفسها أنّها هي أنا، وأنّها لا يمكن في يوم من الأيام أن تأخذ ضدي ما أفضي به إليها». بهذا المعنى، ينبغي أن نفهم قوة هذه الرسائل وشفافيّتها وأصالتها في آن معًا، وأن يكون ذلك حافزًا آخر لا يثينا عن نشرها ومقاسمتها مع محبّي الشاعرة في كل زمان ومكان.

.4.2.3

اعتكفت على الرسائل، من رسالة إلى أخرى؛ من مزاج شخصي إلى موقف عام، ومن حادث طارئ إلى معتقد راسخ، ومن حالة ابتهاج وفرح بالحبّ إلى وضع حداد ومواساة، ومن إرادة التحدي والصمود في وجه الاحتلال الصهيوني إلى إحساس بالخيبة والذل في واقع عربي ميؤوس منه، ومن إيمان بالمطلق إلى شعور بالعدم و. أقرأ وأكتب، وكنت أتخيل أنّ فدوى هي التي تملي عليَّ رسائلها فوق رأسي، أو أمامي بعينيها السوداوين من وجه صبيح ينطفئ حينًا ويشتعل أحايين، وتحفزني على ألا أتراجع، فهي كانت في رسائلها حرّة وصادقة بينها وبين نفسها، قبل غيرها، ولم تكن تلهث وراء مغنم أو شهرة. ومن المعيب أن تظلّ شهادتها على قصة وجودها وعلى محيطها وعصرها «طيّ الكتمان». إنّها جمعت فيها بين العادي والبسيط مثل أي امرأة تحبّ وتشكو وتغضب، وبين الرمزي الأسطوري الذي يرفعها إلى درجة شاعرة فلسطين وأمّها بكل ما في الوصف من أبعاد ودلالات تتعالى على الزمني والمتعيّن. لا أريد أن أبسط أمام القارئ الكريم موضوع كل رسالة على حدة، ولا أن أكشف له عن أسرارها وحجبها، بل أتركه بنفسه يكتشفها ويتأثر بها كما حصل معي. وأيّ أثر ومتعة – بعد ذلك– أن تعاود اكتشاف شخصية شعرية مثل فدوى طوقان.

وقد رتّبت الرسائل الثلاثين زمنيًّا بين أعوام 1977 تاريخ أول رسالة شخصية من فدوى، و1996 سنة وفاة ثريا الذي صدم فدوى وأشعرها بـ«مدى الفراغ الذي تركته في حياتي. إنّه فراغ موحش وأليم».

كما وضعت عناوين للرسائل، وجعلت تحت كل عنوان من هذه العناوين جملة كثيفة اقتطعتها من الرسالة على نحو يشفُّ عن ضوء مقيم في جوهرها الحيّ.

وإجمالًا، يمكن القول إن الرسائل تلقي أضواء جديدة على شعر فدوى طوقان، وحياتها العاطفية، ومحيطها العائلي، وتطورات القضية الفلسطينية في سياق الهوان العربي، أو على رؤيتها للأشياء والقيم والفنون. إنّها كنز نفيس، بل هي أشبه بمعجزة.

الرسائل

الرسالة الأولى

نفثات حبّ جريح

«أغالب رغبتي في البكاء، ولم أبكِ..»

2/9/1977

العزيزة ثريا
مرحبا بك، أقولها من القلب.

فاجأتني رسالتك العزيزة. بلى، إنني أذكر الآن، فحديثك عن زيارتك لي عام 1961 ألقى الضوء على زاوية معتمة من ذاكرتي، وأرجو أن تعذري ذاكرةً غطَّت الحياة الصعبة مخزونها من الذكريات الحلوة. ها أنا أعود الآن إلى غرفتي في بيتنا القديم، وها أنا أراني هناك أجلس معك، ومع شقيقتك – إن لم يخطئ تصوُّري-.

ما أغرب هذا !؟ مرّة أخرى أرحب بك، أنت يا أخت سامي ويا صديقته، وما أجمل أن تقوم الصداقة بين شقيقين يجمع بينهما التفاهم والتعاطف الأخويّ الحميم.

سوف أدخل في صميم رسالتك الغالية مباشرة، وسامي هو نبضها الخفّاق وجوهرها.

لكن، قولي لي يا ثريا، من أين أبدأ؟ ما أصعب هذا الأمر !

تقولين إنه حدثك عني طويلًا.. وتقولين إنه كان مسرورًا بل سعيدًا وهو يستعيد الحديث، والذكريات، ويقرأ الأشعار. ويسعدني أن أسمع منك هذا، أنا التي تحتضن أعماقها تلك التجربة التي بلغت من الجمال حدًّا يصعب معه التحدث عنها، تلك التجربة التي لا تقدر بثمن لأنّ عالم الروح والقلب لا يُثمَّن. ولكن...

هل حدثك سامي عن الصمت الجليدي الذي اكتنف صداقتنا الحميمة؟

إنّ الصمت لغة الغرباء، فهل قال لك إننا أصبحنا غرباء؟

في قلبي أشياء وفي نفسي أشياء وفي عقلي أشياء، ولكنني أصمت وأنكفئ على نفسي لأنَّ ما أريد قوله لا يقال إلّا في جلسة أكون معك خلالها وجهًا لوجه وليس عَبْر هذه المحيطات التي تفصلنا.

على أية حال، كان آخر ما جاءني منه رسالة بتاريخ 17/12/1976 حدثني فيها عن نيّته في البحث عن عمل في إيطاليا. وأجبته بتاريخ 5/1/77 وانقطعت عني بعد ذلك رسائله فلم يكتب إلّا بعد ستة شهور، وكانت بطاقة تحتوي على ستّ كلمات أرسلها من إيطاليا. ومن

المضحك المبكي أنني كنت في إيطاليا في نفس الوقت ووجدت البطاقة تنتظرني حين عدت من رحلتي في الأسبوع الأول من أغسطس.

أما لماذا لم يتذكر أن يسأل إلّا بعد ستة أشهر، أما لماذا لم يفعل ذلك إلّا وهو في مكانٍ ما في إيطاليا، فهذا ما بقي غامضاً بالنسبة لي.

شيء آخر ربما لم يتحدث به إليك. شيء يتعلق بزميل رديء له اصطلحنا على تسميته باسم « IAGO» كان قد عمل على تحطيم صورة سامي في نفسي، ولكن إعزازي وإيثاري لسامي كان أقوى من كل النَّذالات التي تعمل في الظلام، ورضيتُ أن تمتلئ نفس «اياجو» بالحقد عليّ، وأن يحمل لي العداء والضغينة إلى الأبد. رضيت بكل هذا لكي أحمي ظهر سامي من الكلاب العاقرة. فماذا كانت النتيجة؟ باختصار: Sami has let me down !

سليه وهو يفسّر لك، أما أنا فإنني عاجزة عن التفسير وفي كل يوم – مع انقطاع سامي عن أي اتصال- أزداد شعوراً بالعجز عن التفسير. ولقد كانت مقابلته الودّية مع ذلك الزميل على الهواء، إيذاناً منه لي بأن كل ما بيننا وصل إلى نهايته. ومنذ ذلك اليوم لم أحاول التفكير في أنّ صداقتنا تعني قليلاً أو كثيراً بالنسبة له. وكم يحزنني أن تنتهي الأشياء إلى ما انتهت إليه.. من طبيعتي أنني لا أشكو حين يجرحني الآخرون، بل ألتزم الصمت كأسلوب نظيف للتعبير عن نفسي.

مع كل ذلك، إنني مشتاقة إليه، بلا مكابرة. مشتاقة، مشتاقة كثيراً..

كتبتُ في روما قصيدة عن (حصار تموز لروما) فقد كان وجهه يطاردني في كل مكان هناك، وأدركتني لحظة ضعف وأنا في ميونيخ بألمانيا، فقد كان حنيني إليه يشتدّ يوماً بعد يوم. وبيَّضتُ القصيدة، وأودعتها غلافاً كتبت عليه عنوانه في لندن. دخلت إلى زاوية صندوق البريد في قاعة الصندوق لأطلب طابع البريد.. وفجأة قام ذلك العائق النفسيّ فمنعني من تنفيذ رغبتي، وعدت إلى غرفتي أغالب رغبتي في البكاء، ولم أبكِ.. وانتصرت على سامي..

وفي لندن – ولم أكن أعلم أنه في الخارج- وربما كان قد عاد إليها- قاومت الرغبة في الاتصال به، وكنت أموت شوقاً إليه، وانتصرت.. حتى «جوبيلي» حيث كنَّا نلتقي في العام الماضي تجنّبتُ المرور به، وكأنّ أجمل أيام حياتي لم تنزلق هناك من بين أصابعي وأنا أحاول التمسك بها وإيقاف الزمن معها.

لقد قتل سامي كل الأشياء الجميلة. وفي يقيني، بعد أن عرفته، أنه يملك موهبة تدمير الأشياء حتى لو كان الحفاظ عليها لا يكلّفه أي جهد أو تضحية.

عفوك يا ثريا، هذه أول مرة أجد فيها متنفساً لما أنا عليه من ضيق وحزن، فأرجو أن تفهميني وتعذريني. لك محبتي أيتها الإنسانة الطيبة.

فدوى طوقان

الرسالة الثانية

زهرة عبّاد الشمس

«أنا لست «ماسوشيّة» المزاج ولا أحب أن أعذّب نفسي..»

نابلس 12/ أكتوبر/ 1977

عزيزتي ثريا

مباركةٌ أنت. لا ريب في أنّك إنسانة رائعة.. ولكن دعينا نطوي هذا الموضوع. أخشى أن تكون رسالتي قد عكست أمام عينيك صورة غير صحيحة عني هي غير صورتي الحقيقية. لا تخافي عليّ أيتها العزيزة، ليس من طبعي التخاذل أو التهافت.. لقد حاربتني الحياة ولا تزال تحاربني على جبهاتها المختلفة؛ وقد خسرتُ الكثير من معاركي معها ولكنها لم تستطع أن تهزمني قط، لأنني أقف دائما أمامها كهذا الصخر الذي يطلّ عليه الشباك المفتوح على يميني والمشرف على خاصرة جبل جرزيم. كوني متأكدة أنّ هذه الحياة

لن تستطيع أن تهزمني بلؤمها مهما بلغت حدّته.

أحب الحبّ ما دام قوةً بنّاءة تساعد على إيجاد التوازن النفسيّ في الإنسان وتعطي النكهة الرائعة والمذاق الحلو للحياة. وحين يبدأ الحب في التحوّل إلى قوة مدمّرة فسرعان ما أغلق الباب في وجهه. أهلّل له وأباركه ما دام يُشعل خيالي، فألتصق به مدفوعةً بعاطفة شعرية غامضة وأكون سعيدة. ولكني أرفضه وأهزمه حين يتحول إلى عود ثقاب يحرق ويشعل الآلام. أقول لك يا ثريا بصدق، لم يعد لديّ طاقة على تحمل الألم. إن موت إبراهيم ونمر قد أفقدني القدرة على التحمل فأصبحت أتجنب كل ما من شأنه أن يقودني إلى طريق الجلجلة. لذلك تريننـي كزهرة عباد الشمس أدير وجهي حيث تكون الشمس. إنني أكره البرد والظلمة، أكره الليل حين تنطفئ فيه النجوم ويختفي القمر وراء السحب الداكنة الكثيفة، ولا أحبّ إلّا أن تبقى الحياة من حولي حركةً أكون جزءاً منها غير منفصل عنها، والألم – بالنسبة لي- شلل يصيب حياتي ويوقف حركتها. لذلك فإنني أخافه دائمًا، وأهرب منه، وأسدّ في وجهه المسالك بقدر استطاعتي.

لعلك أدركت الآن لماذا أريد أن أُنهي هذا الفصل من كتاب حياتي. جميلٌ أن نشاهد الدراما على خشبة المسرح فنطهّر بذلك عواطفنا وننفّس عما فينا؛ ولكن من منَّا يرغب في أن تتحوَّل حياته إلى دراما حقيقية يستمتع بها المشاهدون؟ أنا لست «ماسوشيّة» المزاج

ولا أحب أن أعذّب نفسي من أجل أيّ إنسان، لذلك فإنني أقاوم دائما ولا أستسلم حين تدركني لحظات الضعف الإنسانيّ؛ وهذا بالضبط ما حصل في رحلتي الصيفية هذا العام حين استشعرت الحنين إلى الوجه الذي أحببته، وكذلك حين فوجئت برسالتك الأولى إليّ، فقد أيقظ حديثك أشواقي إليه، ولكنني بعد أن كتبت إليك الردّ شعرت بالراحة والتحرّر مما كان يضغط على نفسي.

دعوتك السخيّة أتمنى لو أستطيع تلبيتها، ولكنها ستظل للأسف من أمنياتي التي تبقى مجرَّد أمنيات. من القلب أزجي لك الشكر على هذه الالتفاتة الإنسانية الجميلة.

سألتني عن أحبّ قصائدي إليّ في مجموعاتي الشعرية: وحدي مع الأيام- وجدتها- اعطنا حبّاً. أُحِبُّ قصائد معدودة منها وهي قليلة. الواقع أن الإجابة على هذا السؤال صعبة، لاسيّما والمجموعات المذكورة ليست في متناول يدي الآن. ولكن هناك المجموعات التي صدرت بعد «اعطنا حبّاً»، وهي: (أمام الباب المغلق) و(الليل والفرسان) ثم (على قمة الدنيا وحيداً)، بالإضافة إلى مجموعة جديدة لم تطبع بعد. أُحبّ هذه المجموعات وأعتزّ بها وهي تمثل مرحلة تطور كبير في شعري. (أمام الباب المغلق) من أقرب دواويني إلى نفسي وأُحبُّ كل قصائده دون استثناء. سأبعث إليك مع هذه الرسالة بنسخة منه هديةَ محبّةٍ وتقديرٍ خالصين. يحزنني أنك شربت من نفس الكأس المرّة، فليس هناك

شيء أمضّ من موت الأخ الحبيب، ستقرأين مراثيَّ في «نمر» فرُبَّ حزينٍ يتأسَّى بحزين. وآمل أن لا تستغرق رحلة (الديوان) إليك وقتاً طويلاً فخدمة البريد بطيئة هنا إلى درجة تثير التوتر في نفوس الذين يتشوقون إلى سماع شيء من أهليهم وأحبابهم في الخارج.

أما عن كيف أقضي وقتي في نابلس فهناك دائما ما أعمله وأحياناً يحاصرني الوقت. هناك علاقات اجتماعية وواجبات لا مفر من القيام بها ولو على كره. وهناك أعمال منزلية أضطر للقيام بها، فأنا أعيش وحدي ولا أحب وجود امرأة للمساعدة في البيت تجنباً للإزعاج وتعكير صفاء وحدتي. على العموم بيتي صغير، بل هو في الحقيقة Studio لطيف، وهو جزء مستقل تماماً من الفيلا التي أراك سامي صورتها والتي هي ملك لشقيقتي وزوجها. فحين فكرت قبل اثني عشر عاماً ببناء بيت صغير لي اقترح عليَّ زوج شقيقتي أن أقيم المنزل على أرضه فوافقت. وهكذا ترين أن بيتي ما هو إلا ملحق (annex) للفيلا، وكم أنا سعيدة باستقلالي ووحدتي المليئة وحريتي الشخصية. إن أختي وعائلتها يفهمون مزاجي ويعرفون طبيعتي المنطوية لذلك فهم يحترمون رغبتي في الوحدة ولا يزعجونني إطلاقاً. إن زوج أختي واسمه محمد زيد الكيلاني إنسان خلوق ومهذّب إلى أبعد حدّ وهو أب لثلاث بنات – أتممن جميعا دراستهن الجامعية في عمان- وولد في السنة

النهائية من المرحلة الثانوية (سنة التوجيهي).

عودةً إلى «كيف أقضي وقتي». قبل عامين دُعيت لأكون عضواً في مجلس أمناء كلية النجاح الوطنية بنابلس، وهي مؤسسة أهليّة ذات تاريخ حافل منذ تأسيسها عام ١٩١٩، وقد اشتهرت بتخريجها الآلاف من رجال فلسطين الأكفاء في مختلف الميادين. ترددت في الأول بالقبول لعدم ميلي إلى الانخراط في الأعمال الجماعية، ثم كان عليَّ أن أوافق لظروف خاصة بهيئة مجلس الأمناء، ولم أكن متحمّسة أبداً، وانتخبت أمينة للسر. ولكني أجدني منذ شهور مسرورة ومنسجمة، فقد صار العمل على تطوير الكلية إلى جامعة بفضل عزيمة أعضاء الهيئة ورئيسها، وذلك بالرغم من الصعوبات الجمّة التي تعترض المشروع فلم يتهيأ حتى الآن الكادر المناسب للجامعة، والأساتذة الأكفاء يصعب توفّرهم بسبب ظروف الاحتلال البغيض، فليس من الهيّن أن يضحّي الناس بأعمالهم واستقرارهم ليجيئوا من أجل العمل في بلد يعوزه الاستقرار السياسيّ والاقتصادي وإلى آخره... على أن المحاولة لتجاوز كل الصعوبات قائمة، ومن يقرع الباب يُفتح له، فلعل الله يأخذ بأيدينا جميعا. أما عن بقية الوقت فبالطبع أقرأ وأكتب وأُدعى إلى قراءات شعرية في بلدات الضفة وهكذا.

حدثيني عنك أكثر مما فعلت. هل في نيتك الإقامة الدائمة في أمريكا؟ عرفت من سامي أن له أخاً (سمير) يدرس التمثيل في

أمريكا – أم تراني مخطئة؟- وهل شقيقتك الراهبة لا تزال تعمل في الكويت؟ أرسلي إليّ صورة لك لتتضح صورتك التي في ذهني والتي ألقت عليها الستة عشر عاماً غلالة، وإن تكن شفَّافة، غير أنها تؤثر على وضوح الصورة.

لك محبتي أيتها العزيزة وليحفظك الله. فدوى

الرسالة الثالثة

حقيقة الحبّ

«كسرتُ طوق الصمت..»

في 8/ 12/ 1977

عزيزتي الغالية ثريا

سلمك الله وعافاك مما تشكين منه.

أرجو أن تكوني الآن قد تحررت من آلام الرأس. تراك ترهقين نفسك بالعمل أكثر من طاقتك؟ أرجوك ألّا تفعلي. لو تفعلين كم أنت قريبة إلى قلبي، وكم يزعجني أن يصيبك السوء أو الأذى، أبعد الله عنك ما يسوء وما يؤذي.

كسرتُ طوق الصمت قبل أيام، ولن يهون عليَّ (سامي) أبداً. وإذا كان لا بد من أن ينتهي كل شيء في هذه الحياة فليس من المحتوم أن يتم ذلك في جو مشحون بالمرارة وسوء الظن. سيظل سامي صديقاً حبيباً مهما باعدت بيننا المسافات والحواجز التي تقيمها

الكبرياء والمكابرة.. وعلينا أن نذعن للحقيقة التي تقول إن الحب يوسّع القلوب ويضيّق العقول.. أو هكذا أنا على الأقل ! شكراً يا ثريا لبطاقتك وتمنياتي الطيبة ودعواتي لك وللعائلة العزيزة بعام جديد سعيد ملؤه الهناء والرخاء وهدوء البال. وإلى اللقاء في رسالة قابلة.

فدوى

الرسالة الرابعة

المضحك والمأساويّ

«ننتظر الطوفان..»

9/2/1978

عزيزتي ثريا

لـك التحيـة والمحبـة والشـكر علـى الدماثـة والهدايـا والصـورة. ردك على رسـالتي ممتـع، ورأسـك العامـرة بالعقـل والحكمـة ووضـوح الرؤيـة لا تسـتحق الأوجـاع. أرجـو أن تكونـي الآن ودائمـا في أحسـن حـال. لـم أكتـب إليـك حتـى اليـوم لأننـا نعيـش هنـا قلقنـا السياسـي الـذي يصرفنـا حتـى عـن الخلـوة بأنفسـنا لنتحـدث إلـى أصدقائنـا الأعـزاء. الجسـر الـذي مـدّه السـادات علـى الهاويـة تحطـم تحـت قدميـه قبـل الوصـول ولكنـه (يهـدد) بأنـه (سـيلخبط) الدنيـا إذا لـم تسـلحه أمريـكا كمـا تسـلح إسـرائيل.

هـذه هـي حياتنـا العربيـة يمتـزج فيهـا دائمـا المضحـك بالمأسـاويّ،

والعالم العربي كرجل عاجز مكسح القدمين يتلقى الضربات من كل جهات الأرض ولا راحم إلّا اللّه الذي يبدو أنه قد هجرنا إلى غير رجعة. أغبطك على غربتك الجغرافية، فالهجرة والعمل وراء حدود الوطن وجه من وجوه النشاط الإنساني، والإنسان توّاقٌ دائما لاكتشاف المجهول واختراق الآفاق الجديدة.

إنّما الغربة الحقيقية هي غربتنا هنا في أرض الوطن تسحقنا نعال الاحتلال الفاشيستيّ ويلتف علينا ثعبان الاستيطان.. ننتظر الطوفان لعله يجيء فيغسل الأحزان ولكن كل المؤشرات تقول: لا خلاص ! صدقيني إن مجرد الحياة في قلب هذا الواقع المريع شجاعة وبطولة فاللهم زوّدنا بمزيد منها. كل ذنبنا نحن الفلسطينيين أننا نرفض الانقراض كالهنود الحمر وأننا نتناسل كثيراً، وهذا مما يجعل أمن إسرائيل مهدّداً بالأطفال الذين لم يولدوا بعد.. أكتب لك الآن والبلدة مغلقة والجيش يلاحق الأطفال الذين يرجمون الدبابات بالحجارة.. ويعتقل تلاميذ المدارس.. ويسب ويشتم ويتميز غيظاً من هذا الشعب الذي لا يعرف الخوف ولا الاستسلام.

عفوك يا ثريا وسامحيني على هذا الحديث الكئيب. لعلنا نلتقي في عمان ولكني سأسافر إلى إسبانيا في الصيف.

لك حبي- فدوى

الرسالة الخامسة

درس التضحية

«هموم أخواتي أحملها معي أينما حللت..»

نابلس 5/ 1/ 1979

عزيزتي الغالية ثريا

لـك منـي الشـوق والمحبـة. لعلـي كنـت رديئـة طـوال العـام الماضـي، ولكن لعل لـي عـذراً.. فعفـواً. علـى كل الأحـوال يظـل مكانـك في قلبـي ممتلئـاً بـك.

فوجئـت بسـامي وهـو يطـلُّ علـيَّ اليـوم مـن أمريـكا، وقـد سـعدت بإطلالتـه حقـا. كتبـت إليـه الآن وأرجـو أن تصلـه بطاقتـي، إذ إننـي لسـت علـى يقـين مـن صحـة الجـزء الأخيـر مـن عنوانـه: - .N. W 9- ورسـائله بعيـدة الآن عـن متنـاول يـدي فـلا أسـتطيع العـودة إليهـا للتأكـد مـن صحـة الحرفـين والرقـم 9.

قضيـت في عمـان عشـرة أيـام وعـدت ظهـر هذا اليوم، كئيبـة، مغمومة.

ولكن بطاقة سامي أنعشتني إلى حد مّا. أخي أحمد يتلاشى تحت زمهرير الشيخوخة شيئاً فشيئاً، وقد تركته في مستشفى الجامعة الأردنية. عمر، ابن أختي حنان، سيغادر إلى بريطانيا بعد غد، فعطلته الدراسية بلغت نهايتها، وقلبي متعلّق به تعلقاً شديداً، وأخشى عليه من قسوة هذا الشتاء، فهذا أول أعوامه الدراسية في إنكلترا. لقد تشبث بي أن أبقى حتى يوم سفره ولكني هربت لعدم قدرتي على وداع الأحبة في اللحظات الأخيرة. هموم أخواتي أحملها معي أينما حللت. الأوضاع السياسية تظل تقلقني فيما هي تزداد سوءاً يوما بعد يوم. أخشى أن نكون قد انتهينا إلى ما يصبو إليه العدو الطموح والخبيث.

ما كان يجد ربي أن ألقي هذه الغلالة الكئيبة على سطوري إليك ونحن في مطلع عام جديد أتمنى لك فيه أطيب وأجمل الأماني، راجية لك وللعائلة عموما السعادة ونعمة العافية.

أبعث إليك بآخر حلقة نشرتها في مجلة (الجديد) من مخطوطة كتابي: (رحلة صعبة – رحلة جبلية) وقد سبق أن نشرت ثماني حلقات خلال العام الماضي لاقت ترحيباً لم أكن أتوقعه من القراء الممتازين ناهيك بالقراء العاديين. فأرجو أن تجدي في هذه الحلقة شيئاً من المتعة.

بلّغي سلامي ومحبتي إلى سامي إذا كتبت إليه. من غريب

المصادفات أنني ذكرته وبعثت إليه سلاماً مع الصديق د. فؤاد حداد في آخر رسالة كتبتها إليه وتحمل نفس التاريخ الذي حملته بطاقة سامي المرسلة إليّ من أمريكا. آثرت أن أقطع حبل المراسلة لأريحه من هموم الكتابة، فقد لاحظت أن سامي يضيق بعملية كتابة الرسائل، هو يحب أن يتلقّى من الآخرين ولكنه لا يقوم بواجب الرد إلّا متثاقلاً ومتأفّفاً. لذلك وجدت من الأفضل أن أجنّبه هموم الكتابة، ولكنه يظل بالنسبة لي صديقاً حبيباً.

لك خالص دعواتي مع الحب. سلمت لفدوى

الرسالة السادسة

مثالب الصهيونية

«بفضل شعراء المهجر اهتديت إلى أصالتي الشعرية..»

نابلس 4/2/1979

ثريا، يا صديقة، يا حبيبة

الشيك بالخمسين دولار أردّه إليك مع ألف «سلامة خيرك» و« يا عيب الشوم». والأعداد المطلوبة من المجلة سوف أزودك بها في أول فرصة تتاح لي للسفر إلى حيفا وسيكون ذلك في غضون أيام. أجور البريد الزهيدة لن تبهظ ميزانيتي فاطمئني.

أسعدني قولك إنك وجدت متعة روحية في قراءة الفصل المنشور في المجلة. أما عن المجلة نفسها التي أعجبت بها ككل، فأودّ أن أضع أمام عينيك خلفيتها الإيديولوجية. تصدر الجديد في حيفا عن الحزب الشيوعي في إسرائيل الذي هو مزيج من عرب ويهود غير صهيونيين. والحزب مصرّح به رسمياً من قبل الحكومة أو

الدولة وله ممثلون في البرلمان (الكنيست)، ولهذا فأعضاؤه يملكون حرية التعبير عن آرائهم سواء أفي البرلمان أم في الصحافة. ومن هنا كان الحزب الشيوعي مظلَّة يحتمي بها الواعون من عرب إسرائيل المضطهدين، ويملك الشيوعي العربي في إسرائيل حرية انتقاد السلطات وتعرية الصهيونية وإظهار مخازيها العنصرية. ولكن هذا لا يعني أنهم بمنجىً من العقاب النفسيّ الذي يواجهونه، كأحكام الإقامة الجبرية وعرقلة المصالح الخاصة وقطع الرزق وما إلى ذلك. بالمناسبة، كل شيوعي عربي هناك ممنوع من زيارة الضفة الغربية والقطاع، كما أن صحف الحزب محظورٌ توزيعها هنا ولا نحصل عليها إلّا بوسائل ملتوية. ومن جهة أخرى أود أن أحيطك علماً بحقيقة كوننا في الضفة محاصرين فكرياً من كل الوجوه، حيث الكتب والصحف العربيّة ممنوعة علينا ما عدا المجلات الهزيلة كـ«الكواكب» و«موعد» و«حواء» ومجلات الدعارة. في العام الماضي أصدرت سلطة الرقابة قائمة بأسماء (865) كتاباً عربياً بين قصة وبحث وشعر، وقالت بوجوب إخلاء المكتبات العامة والخاصة من هذه الكتب – ومن ضمنها دواويني الشعرية- . فكل موضوع يتناول من بعيد أو قريب القضايا العربية والقومية العربية والوطن العربي أصبح (تابو) محرَّماً علينا. سياسة تجهيل وإشاعة الإحساس بالعدمية القومية في أجيالنا الجديدة، ووقانا الله شرَّ ما هو أعظم.

هل أفهم من حديثك عن موضوع أطروحتك «الأبعاد الإنسانية

في أدب نعيمة» أنك تخليت عن مشروع أطروحتك السابقة في علم اللغويات والصوتيات؟ أتمنى أن يكون ذلك كذلك.. فالإنسان والإنسانية كموضوع للدراسة أهم في رأيي من ذلك العلم الجاف. إنني شخصياً لا أعرف إلا القليل عن هذا العلم الحديث، ولكن يبدو أن له أهمية وأن المستقبل له، فما أكثر الذين يختارونه موضوعاً لتخصصهم التربوي في هذه الأيام.

على ذكر نعيمة: كنت ما بين 1940–1950 شديدة الافتتان به وبجبران وبشعراء المهجر عموماً. وبفضلهم اهتديت إلى أصالتي الشعرية، فقد كنت قبل ذلك أنوء تحت أثقال ما يسمّى الديباجة والجزالة ومتانة تركيب الجملة الشعرية، أي أن اهتمامي كان موجّهاً نحو العناية بالأسلوب والزخرف اللفظي وطنين الكلمات ورنينها و..و إلخ. فما كان يقف حائلاً دون التدفق والبساطة والصدق في التعبير، ولم أتحرر من تلك القيود التقليدية اللغوية المصطنعة في الشعر إلا يوم قرأت كتاب نعيمة (الغربال) وتعرفت من خلاله على حقيقة الشعر وجوهره الخالي من الزيف والتصنع الكاذب.

معك الحق في تعليقك على (تعلقي بالأهل) فهذا أمر متعب حقاً. بالمناسبة، ليس كل الأهل.. فمنهم من كرهتهم فعلاً وكرهوني كما ترين في بعض فصول الرحلة الصعبة التي افتتحتها بهذه الجملة: [لقد لعبوا دورهم في حياتي ثم أوغلوا في مطاوي الزمن].

أما بالنسبة لأحمد – الذي لم يبلغ تعلقي به مبلغ تعلقي بإبراهيم

ونمر مثلاً، والذي ظل الأخ الكبير البعيد الذي يتخذ الصفة السلطوية للأب- بالنسبة له أحزنني أن أراه يتهدم فجأة وبهذا الشكل. هو، ذلك الإنسان الذي ظل يساير إيقاعات الحياة بكل ما يملك من حيوية وذكاء وحب للحياة حتى آخر الشوط. إنني بطبعي لا أطيق رؤية مظاهر الشيخوخة المتمثلة في المرض والعجز والانحطاط الجسدي. لقد ظللت طوال عمري أتمنى أن أموت وأنا واقفة منتصبة القامة في متصف الطريق. إن منتهى البؤس الإنساني إنما يكمن في الانهيار الطبيعي للكيان الجسدي وفي الخمول الذهني الذي يرافق الشيخوخة مما يجرّد الإنسان من مظاهر إنسانيته.

أتوق إلى لقائك توقاً حقيقياً. أنا على موعد مع (إيطاليا) من الشهر الخامس – مايو- ولم أضع زيارة إنكلترا في برنامج الصيف القادم، ولكن اقتراحك جعلني أعيد النظر في الأمر. على كل حال سنرى إلى ذلك فيما بعد، فلا يزال هناك فسحة من الوقت للتفكير واتخاذ القرارات.

تحياتي إلى سامي القابع في ضباب لندن الآن. سرّني أنكم أمضيتم أياما جميلة معا، فلا أجمل من لقاء الإخوة الأحباب.

أختم رسالتي بالمحبة والشوق إليك أيتها الصديقة الغالية.

فدوى

الرسالة السابعة

إلّا الثقة

«إن التجربة كانت رائعة البداية والنهاية...»

نابلس 11/3/1979

الصديقة ثريا

مع الحب والشوق أرسل إليك الفصول الثمانية التي سبق نشرها، والتي كنت قد جمعتها معاً في إضمامة واحدة بعد أن فصلت الحلقات من مكانها في المجلة، وذلك بسبب خطأ في الترتيب الزمني وقع في الحلقة الثانية، مما اضطرني إلى إجراء الترتيب اللازم في الحلقات الثانية والسابعة والثامنة. كما أنني أضفت صفحة لم تنشر وتجدينها ضمن الحلقة الثامنة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

استحال عليَّ الحصول على الأعداد التي وعدتك بها، وذلك بسبب نقاط التفتيش على الطرق. فمع تصاعد أعمال المقاومة

داخل إسرائيل خلال الشهور الأخيرة ازداد التفتيش دقّةً وصرامة، حيث يُؤمر المسافرون بالنزول من السيارات ثم يجري البحث والفحص الذي يشمل المسافر وما يحمل، بالإضافة إلى تفتيش خزائن السيارات ومقاعدها إلخ.. لذلك رأيت أنَّ أفضل ما أعمله هو أن أبعث إليك بهذه (الإضمامة) المشار إليها إذ إنّ في حوزتي نسختين أقدم إليك واحدة منهما بمنتهى الغبطة. كما سأوافيك قريبا ببعض الأعداد المتوفرة لديّ ما دمت معنيّةً بالاطّلاع على الموضوعات الأخرى، وقد سرني اهتمامك بالمجلة فهي مجلتي العزيزة المفضلة.

بعث إليّ سامي برسالة حلوة آملاً في ختامها (أن يكون العام الجديد عام مصالحة ووصلا للقطيعة غير المتعمدة) كما قال. وقد رحّبتُ به وسررت بمبادرته الجميلة. كان عندي دائماً استعداد نفسيّ لأن ينتهي بنا الأمر إلى صداقة هادئة متسامحة لا تشوبها الشوائب. وهكذا نستطيع أن نقول الآن إن التجربة كانت رائعة البداية والنهاية. أما تلك الارتباكات القليلة التي اعترضتها فهي من الأمور الطبيعية في كل العلاقات الإنسانية على اختلاف أنواعها. في رواية «سوس الخشب» للكاتبة الإنكليزية ماري كوريللي يسأل صديق صديقه عما إذا كان مستعدا لأن يغفر له ما قد يرتكبه من خطأ معه. وفكر الصديق برهةً ثم قال: إنني على استعداد للصفح عن أخطاء كثيرة لأصدقائي، ولكن هناك أمور لا

يمكن أن أغفرها أو أن أصفح عنها، منها العبث بالثقة عن عمد. وأعتقد أنني أكثر تسامحاً من بطل الرواية.. ولا أدري إن كان هذا ينمّ عن ضعفٍ في طبيعتي أم عن قوة. ما رأيك أنت يا ثريا؟

اكتبي لي حين يكون لديك وقت ومزاج. أعرف أنك صاحبة مسؤوليات كثيرة: عمل، دراسة إلخ.. عافاك الله وأخذ بيدك فيما تطمحين إلى تحقيقه من الأماني الكبيرة في مجال الدراسة. إنك تثيرين إعجابي بحق، ومن عدة نواحي. إنني سعيدة بصداقتك.

آمل أن تكون العائلة بخير وأن يكون كل شيء على ما يرام حتى يتوفر لك الجو الملائم للدرس والبحث في مجال أطروحتك للدكتوراه.

أشتاقك وأقبلك.

فدوى

الرسالة الثامنة

الخطر

«نعاني حالة كئيبة من الهبوط المعنوي...»

نابلس

2/5/1979

ثريا الغالية

كلمة خاطفة.. وصلت الرسالة مع ألف شكر. سأكتب إليك مطولاً. الآن مثلي مثل الآخرين هنا، كلنا نعاني حالة كئيبة من الهبوط المعنوي. حقق «السلام» أهداف بيغن التوسعية: استمرار السيطرة على الأرض والمباني والسكان ومصادر المياه. الأخبار السيئة تنهمر، ونحن نواجه خطر الاقتلاع من الجذور وفقدان الهوية. لا تعني «الإدارة الذاتية» شيئاً أكثر من إدارتنا لشؤوننا المحلية – إدارة للسكان وليس للأرض- التي أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية مئة بالمئة. يعني أصبحنا أقلّية كالأكراد في إيران والعراق أو باسك

إسبانيا.. أقلية تابعة ومملوكة لدولة تمارس سيادتها على الأرض.

عجَّلت بهذه السطور القليلة فقط لأطمئنك على وصول رسالتك العزيزة، وآمل أن يرجع إليّ مزاجي لأتحدث إليك طويلاً. كيف صحة سيدتي الوالدة؟ أرجو أن أسمع أخباراً حسنة، لو عرفت بوجودها في عمان لسعيت إليها لأراها، فقد عدت أمس من عمان ووجدت رسالتك بانتظاري. لك كل حبي

الرسالة التاسعة

هذا قدرنا

« سأعود غدًا إلى نابلس لمواصلة الاعتصام في قاعة البلدية..»

عمان 29/11/1979

يا غالية ثريا ـ شكرًا للبطاقة. أجو أن تكوني قد استمتعت بمشاركتك في المؤتمر الشرق أوسطي. ترى ماذا قلتم وماذا فعلتم؟

جئت عمان لزيارة عمل قصيرة. سأعود غدًا إلى نابلس لمواصلة الاعتصام في قاعة البلدية. لا ريب في أنك تسمعين عن أحوالنا هذه الأيام، أحوال لا تسرُّ الصديق بل تسعد العدو. هذا قدرنا.

اشتركت لك في مجلة الجديد، الاشتراك بدأ من الشهر السابع تموز 1979 وأود أن ألفت نظرك إلى كون المجلة تصدر دائمًا بعد موعدها بشهرين أو أكثر، وغالبًا ما يدمجون عددين في عدد واحد بسبب أزمة الورق والوقت، فالجماعة يصدرون أكثر من مجلة وجريدة.

مبارك عيد رأس السنة. لك وللعائلة عمومًا تمنياتي الطيبة، راجية أن يكون العام الجديد عام خير وعطاء وسعادة لك ولأهلك.

سأبعث إليك بما ترغبين. سأسجل بعض قصائدي على شريط كاسيت وأرسلها إليك على الرأس والعين. لك حبي أيتها الغالية

فدوى

الرسالة العاشرة

قطرات السعادة

« كم هو حبيبٌ إلى قلبي وروحي»

لندن 14/6/1980

ثريا، يا أخت، يا حبيبة، هذه سطور قليلة عجلى لأقول لك كم أحبك. أحاديثنا عبر التلفون – على قلَّتها وقصرها- جعلتني أحسّ كأنني أعرفك من قبل أن أُخلق، وجعلتني أحسّ أنك أقرب إليَّ من نفسي. هذا صدق – واللّه والمحبة يشهدان-. أنا غنيّةٌ بك، فاعلمي هذا وتيقني منه.

سعدتُ هذا الصيف بسامي كما لم أسعد من قبل. وعرفته كما لم أعرفه من قبل. سامي الحقيقة، وليس فقط سامي خيالي ورؤياي. إنه حقيقةٌ جميلة يُختصر فيه كل الجمال الذي في هذا العالم. كم هو حبيب إلى قلبي وروحي.

بهذه الرسالة القصيرة والخصوصية جدّاً جدّاً أقول لك إنني أكتب

إليك الآن في ساعة مبكرة من هذا الصباح، فيما هو يغفو ويفيق على تحركاتي في البيت، والتي أحاول جهدي أن تكون خفيفةً لا تُحسّ ولا تُلمس ليظل هانئاً في غفوته. سمع قبل لحظات صوت عود ثقاب فيما أشعل السيجارة، فرفع رأسه وقال مندهشاً: تدخنين الآن؟ قلت: أريد أن أشرب قهوتي وأكتب إلى ثريا.

ما أقل لحظات السعادة في هذا العالم المضطرب والتعيس، هذا المحيط الواسع من الشقاء، فلماذا لا نغتنم قطرات السعادة النادرة حين تجود بها علينا السماء !

أشكرك مجدداً على كل شيء، يا أخيّة، يا حبيبة. وأتركك على أمل لقاء قريب في الضفة الغربية أو في الأردن. سأكتب إليك مرة أخرى من عمان التي سأمكث فيها لفترة شهر، ولن أعود للضفة قبل أغسطس.

لم أحصل على رقم صندوق بريد شقيقتي بعد، لذلك يُؤجل موضوع إعانة مجلة الجديد، وإياك أن تزيد الإعانة عن مبلغ ثلاثين دولاراً، أيتها الحاتمية الطائية..

أقبلك وأشتاقك وأحبك.

فدوى

الرسالة الحادية عشرة

سلامٌ من نسيم «التيمز»

ثلاث سنين من صمتٍ وغُرْبَهْ فما أحلى مصالحة الأحبَّهْ

غفرنا للزّمانِ الصعبِ ذَنْبَهْ وكم جارَ الزّمانُ وكم تعدّى

**

ثريا يا أُخيَّـــــةُ، يا حبيبه لِأَهْل العشق أطْوارٌ غريبهْ

طبائعهم مركّبـــــةٌ عجيبه بها عُنْفُ الصراعِ كَمِ اسْتبدَّا

**

هُمُو حينًا على قلقٍ مُحيَّرْ وحينًا في انتشاءٍ لا يُفسَّرْ

تناقُضُ حالِهِمْ أمرٌ مُقدَّرْ يدورُ عليهمو نحسًا وسعدَا

**

وعالمهم يظلُّ رؤىً ووَهْما وقد تمسي الحقيقةُ فيه حُلْما

على أنّا نحبُّ الحبَّ مهما تقلَّـــــبَ بحرُهُ جَزْرًا ومدَّا

**

نسيمُ السلّطِ في «جوبيلي» بليلُ وشمسُ «شكيم» ليس لها أُفولُ

وبستان الرضى حانٍ ظليلُ نزهِّـــر فيه دحنونًا ووردَا

**

فلا قرَّتْ عيونُ الشامتينا ولا هنئتْ نفوسُ العاذلينا

سنبقى رغم كيد الحاقدينا نفيضُ محبّةً ونفيضُ ودّا

**

سلامٌ من نسيم «التيمز» أَنْدى وشوْقٌ يا ثريا ليس يَهْدا

هنا فدوى، هنا سامي المفدَّى صفا لهما اللقاءُ وطاب وِرْدَا

لندن، صيف 1980

الرسالة الثانية عشرة

الذكريات الباهرة

« يا زمان الوصل كم كنت سخيّا!»

عمان 4/7/1980

الحبيبة ثريا

أكتب إليك بقلمك الجميل، والذي سيظلُّ استعماله مرتبطاً بذكرى تلك الساعة المبكرة من صباحٍ لندنيٍّ نديّ. كانت أول رسالة أكتبها بهذا القلم، وكنت مفعمة الروح والقلب بالهناء والسعادة، وبحضور ذلك الإنسان الغالي الذي تعرفين.. والذي كان حينئذ يتراوح بين النوم واليقظة. آمل أن تكون تلك الرسالة التي كتبتها إليك من هناك قد وصلت.

بالمناسبة، هذا القلم لن أستطيع أخذه معي إلى نابلس، فكل قلم حبر يُصادر من المسافرين إلى الضفة الغربية عن طريق الجسر خوفاً من أن يكون القلم معبّأً بمواد متفجرة !!

ومـرة أخـرى بالمناسـبة، حـين تقررين أن يكـون موضـع لقائنـا الـذي نتطلـع إليـه كلانـا هـو مدينتـي نابلـس، هيّئـي نفسـك لتقبّـل «التجربـة» علـى الطـرف الغربـي مـن الجسـر عنـد مركـز حـدود أريحـا. حقـاً إن كل شـيء عنـد العبـور منظّـم، ولكـن هنـاك عمليـات التفتيـش المرهقـة لأعصابنـا بمـا يتخللهـا مـن تعريـة وتسـليم كل مـا في حـوزة المسـافر مـن أشـياء للتأكـد مـن كونهـا ليسـت ممـا يؤثـر علـى الأمـن.. حتـى صـورة طفـل لـو وُجـدت فإنهـا تخضـع للرقابـة وتُحـوَّل إلـى غرفـة رقيـب المطبوعـات هنـاك ثـم تُـردّ إلـى صاحبهـا بعـد انتظـار سـاعة أو أكثـر. وأودّ أن ألفـت نظـرك إلـى أن جـواز السـفر الأمريكـي لـن يشـفع لحاملـه مـا دام عربيّـاً، ولا بـد مـن كل الإجـراءات التـي تقـع علـى الإنسـان العربـي هنـاك، فالإنسـان العربـي يظـل بالنسـبة إليهـم عـدوّاً لا يؤتمـن في أيـة حـال. هـذا هـو واقعنـا هنـاك؛ فـإذا وضعنـا مقابلـه واقـع العالـم العربـي بـكل مـا فيـه مـن فـراغ وضيـاع ومتاهـات وإحبـاط رأينـا المفارقـة المضحكـة !

قلتِ لـي علـى الهاتـف أن مجلـة «الجديـد» لـم تصـل إليـك منـذ انتقالـك إلـى البيـت الجديـد مـع أن بريـدك المعنـون علـى البيـت القـديم يحـوَّل إليـك. إننـي متأكـدة مـن أن المجلـة لـم تـزل تُرسـل كمـا في السـابق، ولكنـي علـى كل حـال سـأوافي الجماعـة في حيفـا بعنوانـك الجديـد لـدى عودتـي إلـى الضفـة، فالاشـتراك عـن العـام الحالـي قـد تمَّ في حينـه، ولا بـد مـن موافاتـك بهـا بانتظـام.

هـا أنـا بعـد عودتـي مـن لنـدن أحـسّ بقلبـي مثقـلاً بـكل الحنـين والشـوق والبعـد المكانـيّ؛ أحيانـا أغيـب في حلم يقظـة جميـل، وأصبـح خـارج حـدود المـكان والزمـان وأجدنـي هنـاك، معـه، جنبـاً إلـى جنـب ويـداً في يـد: يـا زمـان الوصـل كـم كنـت سـخيّا !

اكتبـي لـي أيتهـا الغاليـة علـى عنوانـي في نابلس، فقـد أوشـكت إقامتـي هنـا في عمـان علـى نهايتهـا. حـين أعـود سأرسـل إليـك «كاسـيت» قصائـدي التـي سـجلتها مـن أجلـك ولـو كان علـى غيـر مـا أحـب مـن الصفـاء والوضـوح، فـأَنْ أُريـك عـذري خيـراً مـن أن أُريـك بخلـي.

أجـرى لـي سـامي مقابلـة أدبيـة لإذاعـة لنـدن. دردشـنا فيهـا معـاً في برنامـج يسـمونه (في الواحـة)، أذيـع بعـد عودتـي إلـى عمـان وقـد سـجلته، وهـا أنـا بـين يـوم وآخـر أسـتمع إليـه وأسـتعيد الذكريـات الباهـرة !

لك حبي، يا حبي، يا ثريا

فدوى

الرسالة الثالثة عشرة

صراع العقل والقلب

«لقد تعبت عيناي من التحديق..»

نابلس 27/9/1980

يا غالية

إحساسي بوجودك معي يقوى هذا الأسبوع، لماذا وكيف؟ لا أدري ولكني أعتقد أن الإنسان في هذا الكون الكبير يسبح في جو تملؤه التيارات الروحية الغامضة. يسعدني أنك ترتبين للقائنا في العام القادم. حبذا لو كان ذلك في عيد الفصح، أي قبل الصيف والقيظ الذي أصبح يشتد في بلادنا عاماً بعد عام. على كل الأحوال، السعادة بلقائك تظل سعادة في كل الأيام والفصول. آمل أن يكون اللقاء في عمان. سألتني عن رقم التلفون في نابلس، اطلبي 1422 وهو تلفون بيت أختي المجاور لبيتي. منذ انتقلت إلى مسكني المستقل بقيت على تصميمي على ألّا أنقل إليه الهاتف. كان يزعجني إلى حد لا يطاق.

أختي وعائلتها ينامون في وقت مبكر، ولكي نتجنب الإحراج أفضل أن تجيء المكالمة بعد الظهيرة بتوقيتنا المحلي وفي واحدٍ من أيام عطلتك الأسبوعية أي يوم سبت أو أحد، وبهذا أكون أنا خلال هذا التوقيت شبه المحدّد في حالة توقع فألزم البيت ولا أغادر.

ثريا حبيبتي أعيد إليك شيكا بقيمة مئة دولار وهو ما اقتصدته من هبتك السخية للمجلة. المئتان أكثر من اللزوم، أما المجلة فسوف يحملها إليك البريد الجوي. قالت لي الجماعة أنهم استمروا في موافاتك بالمجلة على العنوان القديم، والذنب ذنبي أو ذنب الظروف التي أبقتني أربعة أشهر بعيداً عن الضفة الغربية.

كيف الأحباب؟ عدت إلى نابلس ووجدت رسالة حلوة منه، ثم توالت عليَّ بطاقتان من إيطاليا تأخر وصولهما حوالي أربعين يوماً. الخدمة البريدية تعيسة في إيطاليا وليست أفضل من بريدنا. أتظنين أن الأخ العزيز آت إليكم من تشرين أول؟ قد يغيّر فكره –كالعادة– لكني آمل أن يجيئكم وتقر عيونكم بوجوده معكم – ليتني أكون معكم !–

مشتاقة إليه. أفتح لك قلبي الآن فاستمعي لي يا أعز الناس: أجلس أحيانا وأقول لنفسي– هذه العلاقة الخالية من العقل والمنطق يجب أن تنتهي إلى صداقة طبيعية وسليمة. إلى متى أبعثر الزمن وأطارد الأوهام؟ لقد آن للقلب المجنون أن يعقل، وآن للهوى العاطفي أن يتوقف. حين تجيء الأشياء متأخرة تضعنا يا

ثريا في مخالب الصراع، صراع العقل والقلب، وما أشد الألم وما أوجع التمزّق النفسي. لقد تعبت عيناي من التحديق داخل النفس والقلب.. أذهب دائماً في العمق وأستغور الأشياء فيزداد تمزقي وعدم اقتناعي بعقلانية هذا الأمر كله. إنه يؤرقني ويملؤني بالكآبة.

خلال العام الماضي نعمت بهدوء نفسيّ مريح. خلت أن الأمر انتهى إلى الحال الطبيعية المعقولة والمقبولة، ولكن لقاءنا السعيد هذا العام عاد فجدَّد الأشياء وحرَّك الحياة، وهنا أدركت أنّ الحب كشجرة الورد تحيا بالرعاية والعناية وتموت بالصمت والإهمال واللامبالاة. وها أنا أتراوح بين المشاعر المتضادة، سعيدة شقية في آن، أشتاق وأحلم بصيف قادم.. وألعن نفسي وقلبي.. وأشتهي الموت والراحة.. فالحياة حلم والموت يقظة وراحة أبديّة.

حاولت إرسال «الكاسيت» المعبأ بصوتي وأشعاري، ولكن قيل لي أن احتمال المصادرة وارد. سأحتفظ به إلى يوم أسلمه إليك يداً بيد.

ماذا بعد؟ اسمعي يا غالية:

--1

هبطتَ في المساء

أتيتَ محمولاً على سحابه

جئتَ نبيّاً باهر العطاء

منحتني الخلاص والنجاه

منحتني البكاء والكآبه

منحتني بشارة الحياة

--2

حديقةُ الجمال ملكنا

لنا الجنى منها وفرحة القطاف

يداك فيها جدولا عناق

أُفِيءُ للضّفاف

يضيءُ ورد العشق في دمائي

تنمو بذور الحزن في الأعماقْ !

--3

يا حبُّ يا خلّاقْ

يا مبدع الجمال والأوجاع

يا باعثاً وجوديَ الجميل يا مشتِّتي

على حدود الموت والضياع

يا حب يا حقيقة الحياة يا توهُّجَ السَّرابْ

مباركٌ هذا الجمال والعذاب

هذا.. ولك حبي وشوقي/ فدوى

الرسالة الرابعة عشرة

السؤال الصارخ

«لماذا كل هذا يا إلهي !؟»

نابلس 19/2/1981

ثريا الحبيبة

هذه ليست رسالة ولكنها كلمة سريعة أرد بها على بطاقتك المعزِّية. كلماتك الصادقة مسحت على قلبي بيد حانية رقيقة، سلمك اللّه وعافاك مع من تحبين.

حبات العقد تتفرط حبة بعد حبة، موت ثم موت ثم موت، والفعل هذا مستمر لا ينقطع، سلَّمنا به على كره، وقلنا إنه الحقيقة الوحيدة في الوجود، تولد بذرته فينا منذ اللحظة الأولى من ميلادنا، وكلٌّ منا ينتظر دوره، فالمصير مفروض علينا ولا مفر ولا مهرب.

ليس هذا ما يقلقني ويشوشني، في حالة أخي أحمد كان الموت

رحمةً وإنقاذاً له من عذاب جسديّ عانى شدته على مدى عام كامل. قال لي قبل شهور وأنا أقف أمامه بكل عجزي وضعفي الإنسانيّ: الانتحار أفضل من هذه الحياة، لماذا لا يأتيني الموت فأستريح. كان كالطفل، بلا حول وبلا قوة، حتى جرعة الماء كنَّا نقطِّرها في فمه تقطيراً.

ليس الموت هو الفاجع؛ الفاجع الحقيقي والسؤال الحائر هو: «لماذا كل هذا يا إلهي ؟!»

هذا السؤال الصارخ الذي تجمعت فيه كل آلام البشرية، وجدت له المسيحية جواباً شافياً وحلّاً مثالياً لمشكلة الألم المحيّرة. أما الإسلام فأوصى بالاستسلام والاتكال على الله فلا اعتراض على ما أراده الله وارتضاه وعلينا أن نتمسك بالصبر والإيمان.

مشكلتي يا ثريا أن السماء في نظري فارغة، فقلبي قد فقد الله منذ بعيد، ومع هذا الفقد انكسرت فيه تلك الدائرة السحرية التي تحيط بقلوب المؤمنين.

بعد وفاة أحمد بخمسة أيام أصيبت شقيقتي التي أجاورها في السكن بنزيف في الدماغ، ضربها فجأة كالصاعقة وتركها مشلولة النصف الأيمن من جسدها، عاجزة عن الكلام والحركة. والمأساويّ في الواقعة أن شقيقتي ظلت طوال حياتها – وهي أصغر مني بعامين- ظلت تتصف دائمًا بديناميكيتها التي لا تقف

عـن الحركـة. كان العمـل المنتـج هـو رئتهـا التـي تتنفـس بهـا ومصـدر سـعادتها وبهجتهـا. والأكثـر مأسـاويةً الآن أنهـا عـادت إلـى حالـة الصحـو الطبيعـي وأصبحـت تعـي وضعهـا العاجـز كليـاً، ممـا يسـبب لهـا نوبـات شـديدة مـن الكآبـة والحـزن والقنـوط. فلمـاذا كل هـذا يـا إلهـي ؟!

يؤسـفني يـا ثريـا أن يصبـغ كلماتـي إليـك هـذا اللـون القـاتم، ولكنـك أخـت وحبيبـة أبثّهـا بعـض مـا بـي فأجـد التخفيـف والتطهيـر مـن الألـم في هـذا الوقـت الصعـب. علـى كل حـال، الطبيـب غيـر يائـس وإنمـا الأمـر يأخـذ وقتـاً، والتحسُّـن في مثـل هـذه الحـالات يكـون بطيئـاً ولكـن ليـس ميؤوسـاً منـه.

أتطلـع إلـى لقائنـا بأمـل وشـوق. إذا لـم يحـدث مـا يعيـق فليكـن لقاؤنـا بلنـدن في شـهر مايـو وأرجـو أن ألقـاك هنـاك بخيـر وعافيـة.

مع كل الحب

فدوى

الرسالة الخامسة عشرة

المشاريع والمكاره

« على ضوء مصباح بترولي أكتب لك..»

نابلس 25/ 3/1981

يا أعز أخت ويا أحب صديقة

بارك الله عليك. رسالتك الفيّاضة بالخير والنبل والمشاركة الوجدانية الصادقة تلألأت كلماتها في قلبي كما تتلألأ نجوم السماء في الليلة الحالكة. حدثت شقيقتي عن صلواتك الطيبات من أجلها، حدثتها عن الأخت المحبة ثريا التي تعطي من ذاتها بسخاء وجلال، وتمنح بكرم وجود. أخت أنت وأية أخت، صديقة وأية صديقة.

شقيقتي ما تزال مصلوبة على سريرها، عاجزة عن الكلام والحركة، ولكن وعيها للأشياء والناس أصبح متكاملاً. ومن المريح لها ولنا أن حالتها النفسية والمعنوية أفضل مما كانت عليه، فهي،

منذ أسابيع، تتجاوب مع الحديث المرح، وتضحك حين نضاحكها، وتقبل على وجبتها الغذائية وتتذوق الطيّب من الطعام. لعل صلاة قلبك المؤمن الطاهر تؤثر من بعيد. قلت لك ذات يوم إنني أومن بوجود تيارات روحية تملأ هذا الكون، ومما لا أشك فيه أننا نملك أجهزة إرسال واستقبال تعمل فينا بصورة غامضة خفيّة.

ابنتها الكبرى «فدوى» استقالت من عملها وتقوم بخدمتها ورعايتها بشكل رائع، وكذلك يلازمها ابنها «عمَّار» ليل نهار، وقد أجَّل مشروع سفره لأمريكا لاستكمال الدراسة، فهو شديد التعلق بأمه ولا أحنّ منه ولا أبرّ.

ماذا بوسعنا أن نفعل سوى أن نحني رؤوسنا لعواصف الزمان. لقد خُلق الإنسان ليمرّ بالآلام والمكاره، وهذه حقيقة لا مفر من مواجهتها بصبر وشجاعة حتى لا نفقد عقولنا !

أتطلع إلى لقائنا في لندن بشوق وسعادة. ستجدينني لدى عودتك من الكويت في الانتظار. سأغادر الوطن في منتصف أيار تقريبا، وإقامتي في لندن ستستغرق أربعة أسابيع، وهكذا فإن الأسبوع الأول من حزيران – كما حدَّدتِ في رسالتك- سيكون أسبوع لقائنا الجميل.

المشروع المطروح لزيارة أمريكا لا قِبَلَ لي بتحقيقه، أقول هذا وأنا آسفة. سنتحدث مليّاً يوم نلتقي. أما عن الصديقة القديمة

(ذات الطبيعة العدوانية) فقد أسقطتُ صداقتها من حسابي منذ اكتشفت حقيقتها، واحدة من سمك القرش الوحشيّ رهيبة ومخيفة، فليرحمها الله !

على ضوء مصباح بترولي أكتب لك هذه الصفحة الثانية من الرسالة. صباحٌ ماطر وعاصف تسبّبتْ بروقه ورعوده في قطع التيار الكهربائي، وأمامي اليوم مشروع سفر إلى القدس لا أستطيع تأجيله. أحبّ الأيام الماطرة، لا سيما في آخر فصل الشتاء حيث يكون البرد الشديد قد خفَّتْ وطأته، فها أنا أكتب دون الشعور بالحاجة إلى إشعال المدفأة.

ثريا، أودعك الآن لألقاك في (جوبيلي)، وجوبيلي هذا شارع جانبي في تشلسي. سلي سامي عنه ينبئك !! كل الحب.

فدوى

الرسالة السادسة عشرة

قصّة الصداقة

«لقد أعطيتني الثقة بأنّك صديقة حقيقية تعتبر نفسها أنّها هي أنا»

نابلس 19/2/1982

الأخت الغالية ثريا

تحيات الشوق والمحبة. طالت إقامتي في عمان على غير ما كنت أتوقع. عدت قبل أربعة أيام فقط ووجدت رسالتك وسعدت بلقائك ثانيةً من خلال سطورها، تلك السطور المحمّلة بكل معاني جمالك وصفائك ونقاء سريرتك.

لم أكن أقلَّ منك رغبة في اللقاء مرة وأخرى وثالثة ورابعة إلخ. ولكني كنت دائما أشعر بالحيرة بين هذه الرغبة الصادقة وبين خوفي من أن أضعك تحت ضغط حصارٍ مرهق لك، فقد كنت أدرك

تماماً توزّعك بين العمل وواجبات العلاقات العائلية والصداقات التي لا مهرب من الاستجابة لمتطلباتها.

على كل الأحوال كنت حريصة جدًّا على التكفير عمّا سلف من موقفي السَّيئ تجاهك في لندن؛ كنت مثقلة بالشعور بالذنب، ومن هنا كان لا بد لي من إطلاعك على بعض الحقائق لتتبيَّني بنفسك وتسامحيني وتعذريني بالرغم من أن إقفال الموضوع كان أهمَّ عندي من فتحه. على أنني كنت سعيدة بشعوري أن لديك قدرة على الفهم والتفهُّم وإدراك الحقيقة التي تقول إن لحظات الغضب لا يُحاسَب عليها. لقد انتهيت إلى يقين أكَّد لي أنك خير صديقة يمكن أن يصطفيها قلبي، وأنني أستطيع أن أفضي إليك دون حرج بكلّ ما بداخلي، فأتحدث بارتياح وبلا تحفُّظ، وأبرز أمامك نقاط ضعفي ونواحي نقصي، وأنا متأكدة من أنّك على استعداد لتقبل وتفهّم أخطائي الإنسانية. لقد أعطيتني الثقة بأنّك صديقة حقيقية تعتبر نفسها أنّها هي أنا، وأنّها لا يمكن في يوم من الأيام أن تأخذ ضدي ما أفضي به إليها – كما حدث لي مع الأخريات من الصديقات الغادرات. لقد كانت قصتي مع الصداقات قصة فشل وإحباط، انتهت بي منذ سنين إلى تكوين علاقات لا تذهب بعيدًا في العمق، بل تظلّ تطفو على السطح. إن النفس لتتحسر وهي ترى النضوب في المشاعر والعواطف حتى بين أفراد الأسرة. ما أصعب أن تثقل عليك هموم الحياة فلا تجدين حولك القلب

الحاني الذي يمكن أن تفضي إليه بما يثقلك؛ كل واحد لا يهتم إلّا بذاته وبإرضاء هذه الذات دون الاهتمام بالآخر. حولي صديقاتٌ على جانب كبير من الطيبة والصدق ولكنّهن قاحلات فكريّاً، وهذا النمط من الناس يبعث على الملل ولا تطاق مجالسته أكثر من نصف ساعة. إن المشاركة الفكرية هي عصب الحياة الأكثر أهمية في عالم الصداقات. من هنا تنبعث سعادتي بك وبثقتك وبمحبّتك.

لقد حدثتني عن ذلك السر الكبير في حياتك، وكنتُ وأنت تتحدثين أمتلئ جمالاً وجلالاً وإكباراً لذلك الإنسان العظيم الذي بدا لي من خلالك أنه جدير بهذه العاطفة الرائعة والتي وقفْتِها عليه وحده طيلة سنوات عديدة من مسيرة حياتك، دون الأمل في الوصول إلى الغاية التي ينشدها كلاكما. أنت محظوظة يا صديقتي بالرغم من ظلم الحياة لك. حسبك أن تجربتك لم تنتهِ بك إلى اكتشاف حقيقة تعيسة ومقيتة، اكتشاف أنّ الشخص الذي أحببته لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى العاطفة التي أثارها فيك، بسبب تسطُّحه وضحالته. ليس هناك أبعث على الضيق والندم من وقوعنا بين براثن تجربة عمياء وحمقاء تجعلنا سريعي الاستجابة كما لو كنا تحت تأثير تنويم مغناطيسيّ، ونتوهم أن هناك سرّاً جذاباً يشدنا إلى ذلك الشخص، ثم نستيقظ فجأة لنكتشف أن السرّ لا يستحق المعرفة، لأنه لا وجود له إلا في أوهامنا. ليس هناك أفجع من اكتشافنا لحقيقة كوننا أننا إنّما كنا نحبّ «بذلة

أنيقة» فقط ليس في داخلها إلّا الفراغ.

على أنني – وأنا أبارك على حبكما النادر في هذا العصر الذي يتّسم إنسانه بسمة الخواء- أقول لك أيتها الصديقة حرام عليك أن تظلمي نفسك إلى هذا الحد، أو أن تعيني الحياة على ظلمها لك. هناك لحظات في العمر تمنحنا بهاءها وجمالها. إن الوجود يعطينا نفسه إذا عرفنا كيف نأخذه. نحن نحيا الحياة مرة واحدة، ونحن لا نستطيع الهرب من حقيقة أن الإنسان كائن من روح وجسد، وأن سعادته في تحقيق وجوده الماديّ إلى جانب وجوده الروحيّ، فلماذا ترفضين فكرة الزواج بإنسان آخر إذا وُجد الشخص المناسب لك؟ إنك إنسانة رائعة تستحق الحياة ولديك قدرة عظيمة على إسعاد الآخرين – وهذا ما لمسته خلال لقاءاتنا-. تخطر ببالي الآن أديبة فلسطينية موهوبة، لمع اسمها في الخمسينات، ثم انقطعت أخبارها بعد حرب 1948 بسبب بقائها في مدينتها الناصرة بفلسطين. بعد زوال الحدود بيننا وبين إسرائيل بفعل هزيمتنا عام 1967 زارتني تلك الإنسانة الأديبة وكانت قد انتقلت مع زوجها القسيس إلى الإبرشية في مدينة رام الله حيث استقر بهما المقام بعد الاحتلال الإسرائيلي. ولقد تبادلنا أكثر من زيارة حدثتني في إحداها عن قصة حب كبير داهم قلبها قبل زواجها بسنوات، ولم يكتب لذلك الحب النهاية المنشودة – مثل قصتك تماماً- غير أن ذلك لم يمنعها من قبول الزواج بالقسيس وقد أنجبت له أربعة أولاد على

ما أذكر؛ وبالرغم من الزواج وإنجاب الأطفال فهي لا تزال مقيمة على حبها السابق، وهي تشعر أن روحها لا تزال عذراء، وملكاً لذلك الرجل الذي أحبته، وستبقى كذلك حتى نهاية رحلة العمر.

فإذا كانت لديك مقدرة على تحمّل مسؤوليات الزواج وقيوده ومشاكله الحياتية – وهي القدرة التي تعوزني وأفتقر إليها افتقاراً كبيراً- فلا تتركي هذه التجربة الإنسانية تفوتك.

العمل على إكمال أطروحتك للدكتوراه شيء مهم وجميل ويجب أن يتم، لاسيما وأن لديك القدرة الطبيعية على الاستمرارية في الدرس والبحث والسير قُدُماً فيما توطنين النفس عليه. وهذه واحدة من مزاياك الحسنة الكثيرة.

خطر ببالي الآن عرفان قعوار. وتذكرت أن الأديبة الفلسطينية نجوى قعوار زارتني بعد حرب 1967 وكان يرافقها شقيق لها عرفت منه أنه يدرّس في إحدى جامعات أمريكا، وأنه في زيارة للأهل قصيرة. لا أذكر الآن اسم شقيق نجوى، ولكن هل يحتمل أن يكون هو نفس عرفان؟ لا أدري.

يحزنني أمر ابن أخيك بشّار. يا إلهي، لماذا تحدث مثل هذه المآسي؟ وما هو ذنب هذا الإنسان البريء ليُبتلى منذ طفولته بما ابتلي به؟ أسئلة لا أستطيع أن أجد لها جواباً، وحين أرفع نظري نحو السماء لأبحث عن وجه العدالة السماوية فيها لا أرى إلّا

ظلاماً وصمتاً رهيباً.

شقيقتي حنان أحبَّتك، ولفت نظرها جمال صوتك وأنت تتحدثين. حقّاً يا ثريا، إن لصوتك الناعم الرقيق فعل الحبوب المهدئة للأعصاب. أمَّا عن هانية، ابنة أختي، فقد شكرتك كثيراً على الهدية الجميلة. بالتأكيد سوف تسعد حنان وابنتها إذا حظيتا بزيارة منك في المرة القادمة.

شكراً لوفائك بالوعد وعدم ذكر الموضوع للطرف الآخر. إنني أحب أن تُنسى هذه القصة جملة وتفصيلاً، وأن تظل مدفونة في زوايا الماضي المنسيّ.

آمل أن نلتقي في المستقبل. إن معرفتك عن قرب رسَّخت مكانتك في قلبي؛ وإنني لسعيدة بصداقتك وأخوّتك كل السعادة. فاقبلي محبتي وإخلاصي يا غالية.

فدوى طوقان

الرسالة السابعة عشرة

رحلة إلى أمريكا

«ليس أمامنا إلّا العتمة والظلام..»

نابلس 4/10/1982

الصديقة الحبيبة ثريا

محبة وشوق دائماً وأبداً. سعيدة أنا بما حمله البريد إليَّ ظهيرة هذا اليوم. أجمل ذكريات لأجمل أوقات قضيتها في أمريكا. خمس عشرة صورة، بل خمس عشرة رسالة قصيرة مكتنزة بالدلالات والتلميحات التي لن يفهمها أحدٌ سوانا. تعليقاتك على الصور ذكية وخفيفة الدم، أبهجتني وجعلت الابتسامة تزهر على شفتيّ.

بصدق أقول إن ساعات لقائنا – على قلّتها- كانت أكثر زخماً من كل المدة الطويلة التي قضيتها في أمريكا. لقد عمَّق ذلك اللقاء محبتك في قلبي، وشدَّ أواصر محبة وتقدير واحترام ستبقى راسخة وقوية ما دمت أتنفس نسمات الحياة. جوهرك نفيس يا

ثريا، وسعيد الحظ هو الذي تسوق إليه الحياة صديقاً حباه الله بمثل جوهرك ومعدنك الرائع والنادر في أيامنا هذه القاحلة، والتي نضبت فيها ينابيع الأصالة عند الناس إلّا في القليل بل الأقل من القليل.

في صباح اليوم الذي غادرت فيه ميلودكي أحببت أن أطمئن على حال أبو نبيل وأقول لك باي باي وإلى اللقاء، لكن تلفونك لم يستجب لندائي. فهاتفت أم نبيل وسألت عن شقيقك فطمأنتني، كما سلّمتُ عليك فأرجو أن تكون قد قرأت عليك سلامي. أعود فأقول حمداً لله على سلامة الشقيق أبو نبيل.

بعد عودتي من أمريكا لم أقم أكثر من خمسة أيام في عمان، رجعت بعدها إلى مدينتي وبيتي وحياتي، يعني رجعت إلى جو الإحباط العام الذي نعانيه هنا جميعاً. هذا قدرنا وهذا مصيرنا وليس أمامنا إلّا العتمة والظلام، حاضرٌ مقيت ومستقبل ميؤوس منه، وأمة عربية تقوم بالوصاية عليها أنظمة شيطانية كل نظام يقول نفسي نفسي.

في عمان بحثت لك عن الطبعة الجديدة لمجموعاتي الشعرية فأمهلني صاحب المكتبة لبضعة أيام أخرى، ولكني عدت إلى نابلس قبل الحصول عليها. آمل أن أوافيك بها في المستقبل القريب مع نسخة من مجموعتي الكبيرة التي تشتمل على كل دواويني، وهذه

النسـخة أرجـو أن تخصّـي بهـا مكتبـة الكونغـرس مـع الشـكر لـك.

هـذا كل مـا في الجعبـة الآن. سـلِّمي لـي علـى السـيدة العزيـزة أم بشَّـار وعلـى الوالـدة الكريمـة التـي أرجـو أن تكـون بصحـة جيـدة، أدامهـا اللّه لـك.

لك في الأخير محبتي الصادقة، أيتها الأخت المُحِبّة.

فدوى

الرسالة الثامنة عشرة

بريد الشعر

«في حالة عدم وجود محظورات..»

عمان 12 أكتوبر 1982

عزيزتي ثريا

تحياتي وأشواقي. ها أنا أوافيك من عمان بثلاث مجموعات شعرية لم أجد سواها في المكتبات فاقبليها مني مشكورة. أما المجموعة الكبيرة فهي الخاصة بمكتبة الكونغرس وذلك في حالة عدم وجود محظورات معينة فيما يتعلق بالقصائد الوطنية التي كتبتها بعد الاحتلال الصهيوني اللعين، والتي تشتمل عليها هذه المجموعة الكاملة – وقد أصبحت غير كاملة حيث هناك قصائد جديدة لم أنشرها بعد.

أرجو أن تكون أحوالك على ما يرام. كيف صحة الشقيق أبو نبيل؟ أسأل الله أن يُنعم عليه بالشفاء العاجل.

لعل رسالتي التي أرسلتها من نابلس قد وصلت إليك. أمَّا كتب الشعر فسوف أبعث بها على حدة، إذ إنّ البريد لا يسمح بتضمين الرسالة طيَّ المطبوعات المرسلة.

كل الحب والشوق

فدوى

الرسالة التاسعة عشرة

صورة أمريكا

«طال سكوتي...»

نابلس

الغالية ثريا،

مشتاقة. عسى أن تكوني والأهل بخير، خاصة الشقيق العزيز أبو نبيل شفاه الله وعافاه. فرحتُ بكتاب (أمريكا الجميلة) وأسفت لوجودي في عمان أثناء حضور حامله للبيت في نابلس. حقًّا إنها بلاد جميلة، وحقًّا إنني أحببتها منذ زرتها، ولكن يبقى هناك «الأمريكي البشع» ريغن وزمرته والسياسة الأمريكية المتصهينة، هذه وأولئك تبقى هي الصورة الممجوجة في نفوسنا والأكثر رسوخًا في أذهاننا.

حالنا لا يسرّ، ربما نحن الأمة الوحيدة التي أمسها أفضل من يومها. ها نحن نمشي في جنازة الأحلام في فضاء لا قاع له ولا

سـقف ولا شـيء، لا شـيء..

طـال سـكوتي علـى رسـالتك العزيـزة، أمـا هـذه السـطور القليلـة فليسـت رسـالة. سـأكتب إليـك في الغـد القريـب.

آمل أن تكون قد وصلتك مجموعاتي الشعرية ورسالتي التي بعثت بها من عمان قبل حوالي شهرين.

أشتاقك وأحبك

فدوى

الرسالة العشرون

إيثار وأنانية

«لم أعد أعرف بماذا أومن...»

نابلس 26/12/1982

ثريا، يا غالية

رسالتك المحبة الصادقة استدعت من مخزون الذاكرة صوراً جميلة وأشياء كثيرة وحميمة: لقاؤنا في فندق ماريوت في تلك الأمسية الصيفية من أماسي وشنطن. سيارتك وهي تخترق بنا شوارع المدينة النابضة بالأضواء وحركة الحياة.. سهرتنا الطويلة حول مائدة العشاء في بيتك في تلك الساعة المتأخرة من الليل والهدوء والسكون يخيّمان على الأهل النيام فيما نحن نتجاذب أطراف الحديث الهامس، ننبش حياتينا وحيوات الآخرين بقلبين مفتوحين وثقة متبادلة.. سويعات الصباح في غرفتك الجذابة، حضور أم بشار العزيزة واحتساؤنا قهوة الصباح العربية معاً، تَنقُّلنا في بستان الدار لالتقاط الصور التذكارية هنا وهناك، فطور الصباح

في مطعمك المفضل، زيارتنا لمركز كندي، ذلك الرجل العظيم الذي قضت عليه قوى الشر الخفية السوداء قبل الأوان، تجوالنا في مكتبة الكونغرس الفخمة وفي حدائقها الخضراء و.. و.. إلى آخره.

شريط لسويعات أمضيناها معاً في وشنطن ما أجمل طيوف العائدة وما أغلاها. صُحْبتك روح وريحان للنفس والفكر. أنا هنا فقيرة بالنسبة للصديقات، حولي الكثيرات ولكن ليس فيهنّ من تملأ القلب وتمتع الفكر. لا تضحكي أو اضحكي حين أُسِرُّ لك أن الفئة الطيبة والصادقة منهن مملّة وفارغة الرأس، فاالجلوس معها لا يطاق لأكثر من نصف ساعة. أما الفئة الذكية فهي خبيثة الوية وغير مؤتمنة ولا بد من التحفظ معها والحذر من الاطمئنان إليها. المشكلة أن المرء لا يستطيع الاعتزال كلّيةً عن الآخرين وإلّا أصيب بالهستيريا، فلا بد للناس من الناس رغماً عن كل شيء، ولا بد (للأنا) من (أنت).

تلقيت قبل يومين التقويم السنوي الجميل لعام 1984، مشكورة أنت يا ثريا، يا جميلة يا وفية، يا ذات القلب المعطاء. فكل عام وأنت بخير وسعادة مع الأهل والأحباب.

وصلتني رسالة د. جورج عطية وأجبته شاكرة له. أما بالنسبة لحديثك عن ترتيب زيارة رسمية لي إلى الولايات المتحدة فرجائي إليك هو إعفائي من هذا الأمر إذ لا طاقة لي على تحمل قيود

الزيارات الرسمية الخانقة، اتركي الأشياء تأخذ مجراها الذي يلائم طبيعتي. هذا رجاء يا صديقتي.

أحمد اللّه على سلامة أخيك سليمان وتمتُّعه بمعنويات جيدة، فهذا أهم شيء لمن هو في مثل حالته الصحية. أما عن الأخ الثاني فلم أستغرب حديثك عن موقفه العاق من أخيه، فهذا هو سامي على حقيقته، يظلّ دائماً سجين أنانيته ولا وزن للمشاعر والعواطف الإنسانية في مقاييسه وموازينه. صدّقيني لو كانت له مصلحة مادية أو معنوية عند أخيه المريض لجاء يسعى من أقاصي الأرض، ولأغدق عليه الكثير من العواطف المزيّفة ريثما يبلغ هدفه وبعد الوصول يعود فيدير ظهره ثانيةً وهو يضحك في (عُبِّه) كما يقولون. أما عن حكايته مع أم بشار فتلك لعبة تعود على أن يلعبها مع كل امرأة تتطلع إلى حياة زوجية مستقرّة. إن لديه نزعة قوية وغير نبيلة تدفعه إلى العمل على استقطاب اهتمام المرأة التي شاء سوء حظها أن تلتقي به في درب الحياة، فيتودّد ويساير ويحايل ويتصنع (الجنتلمانية)، حتى إذا ما تمَّ له إرضاء غروره وأنانيته المقيتة راح يتملص ويتهرب. هل نسيت ما فعل بالفتاة المسكينة ريما؟ شحنها بالأمل وعلَّقها في فضاء لا سقف له ولا قاع. إن الأنانية صفة فظيعة تشوّه الإنسان بل تقتل إنسانيته.

أخبارك على صعيد عملك مبهجة وتسرّ البال، فإلى الأمام أيتها العزيزة، وأرجو أن تعملي على إتمام أطروحة الدكتوراه فمثلك

جديرٌ بمستقبل باهٍ وزاهر، وليس هناك أجمل من الطموح والتطلع إلى الأفضل والأحسن، وفقك الله في ما تسعين إليه. أصبحت آمل في لقاء آخر لنا خلال إجازتك الطويلة بعد أغسطس 1984، ولعل هذا اللقاء يكون في فلسطين. أما عن صديقك الحميم فإنني أدعو الله أن يرأف بقلبه وبقلبك فيبقيه لك نبراساً يضيء دروبك ويمنح حياتك معنىً ومذاقاً ونكهة، فلا معنى لحياة تخلو من إنسان صديق وحقيقيّ يبادله المشاركة الوجدانية والمحبة والاهتمام. إن صديقاً كصديقك في نبله ووفائه وحبه لهو نعمة من الله ورحمة فهنيئاً لك به.

أختي المريضة لا تزال على حالها. يتمزق قلبي كلما نظرت إليها في انكسارها وضعفها وعجزها. لم أعد أعرف بماذا أومن.. هل الأديان كذبة طفولية؟ هل الحياة لعبة خاسرة؟ هذا الصباح أدرت مفتاح الراديو لأسمع نشرة الأخبار: عنف، جرائم، قنابل تتفجر فتودي بأرواح الأبرياء وغير الأبرياء، صراعات سياسية، أطماع توسعية، مستوطنات تنمو وتتكاثر وتطوقنا حتى الاختناق، ثم، وهنا المفارقة المضحكة المبكية، أغنية تنطلق فجأة بعد انتهاء النشرة : (الأرض، الأرض بتتكلم عربي).. أسكت الراديو، وألقيت نظرةً على خريطة العالم العربي الممزق، المهان، وسقطت في هوة يأسٍ ما لها قرار.

سأغادر في الأسبوع القادم إلى عمان، وسأنقل إلى أختي أم عمر

تحياتك ومحبتك، وستكون سعيدة بدون شك، فأنا أعرف أنها معجبة بك ومحبة لك.

سلّمي لي على أم بشار العزيزة، لا شك في أنها سيدة ممتازة، تمتلك القابليّة للتطور، وفقها الله وولديها ومتّعهم بحياة سعيدة مديدة.

دفّئي نفسك جيداً في هذا الشتاء القاسي الذي تمرّ به البلاد، أما هنا فإن صلوات الاستسقاء ترفع في الكنائس والمساجد لعل الأمطار تجود على الأرض العطشى. لك حبي الخالص وأشواقي الحارة.

فدوى

الرسالة الحادية العشرون

استعادة أيام لندن

«في إنكلترا عرفت الفرح الصافي، وفيها ضربني الموت بالصاعقة»

لندن

22/7/1984

الغالية ثريا. أشواقي تأتيك من لندن آملة أن تصلك هذه البطاقة وأنت وأفراد العائلة بخير وطمأنينة. جئت إنكلترا في 28/5 وسأغادرها في 28/7، أي أنني سأكون في عمان قبل وصول هذه السطورإليك. الشارع الذي أقيم فيه ذو «استراتيجية» ممتازة، غير أن انتشار الأخوة الأعراب فيه وفي كل مكان من لندن يجعلك تشعرين وكأنك لم تغادري (بلاد العُرْبِ أوطاني) ! غير أن هذا لم يؤثر على استمتاعي بإقامتي هنا؛ فقد ظللت مستغرقة في كتابة الفصل الأخير من كتابي، والخاص بالحديث عن تجربتي في إنكلترا

خلال عامي 1962-1963. خلال هذه الرحلة أقمت في أكسفورد بضعة أيام وتجولت في الأماكن التي عرفتها وعرفتني قبل ما يزيد على عشرين عاماً، واسترجعت الذكريات الحميمة، الحلوة والمرة، مما جعلني أعيش الجوَّ كله مرّةً أخرى خلال استغراقي في الكتابة، ومما جعل هذا الفصل ينبض بالمشاعر الحيّة السعيدة منها والحزينة، وقد بدأت السطر الأول بقولي: (في إنكلترا عرفت الفرح الصافي، وفيها ضربني الموت بالصاعقة) إشارةً إلى مصرع شقيقي نمر بحادث طائرة. سأعود إلى الوطن بنفس راضية، فليس هناك أجمل من شعور المرء بكونه حقق ما أراد بنجاح.

وأنت، كيف أنت؟ لم يجر بيننا اتصال منذ أمد بعيد. يخيل إليَّ أن بطاقة منك، أو ربما رسالة، تنتظرني في نابلس التي تركتها في الثالث من شهر مايو، وسأعود إليها في منتصف شهر أغسطس.

كيف أحوال الأخ السيد سليمان؟ أرجو أن تكون صحته في تحسن مستمر.

سلامي إلى العزيزة أم بشار ولك قبلاتي الأخوية.

المحبة

فدوى

الرسالة الثانية والعشرون

حالة حداد

«لا أزال أشعر بالفراغ الذي تركته في حياتي»

عمان 3/11/1984

الصديقة الغالية ثريا

تحيات الشوق والحب. لا شك في الحقيقة التي تقول إن الإنسان يدبّر وهو يضحك. حينما عدت من إنكلترا في أوائل أغسطس هذا الصيف كنت على نية العودة فوراً إلى نابلس، فإذا بي أجد أنني مضطرة للبقاء في عمان لأكون بجانب هانية ابنة شقيقتي حنان وذلك بسبب سفر والديها إلى أمريكا، وهكذا لم أستلم رسالتك إلّا بعد عودتي إلى مدينتي وكان ذلك في الثاني عشر من سبتمبر، ووجدتك في تلك الرسالة العزيزة تخبرينني عن عزمك على المجيء إلى الضفة الغربية للّقاء بي هناك وبعد أن تكوني قد عرَّجتِ ببيروت من أجل أطروحتك.

حين عدت إلى نابلس وجدت شقيقتي المريضة في المستشفى في حالة غيبوبة استمرت بضعة أيام لتنتهي بانتهاء حياتها، وقد كابدتُ حزناً عظيماً بوفاتها، فقد كانت أختاً وحبيبة وصديقة تفهمني وأفهمها، ولا أزال أشعر بالفراغ الذي تركته في حياتي، وإنني أعيش بمنزلٍ مُلاصقٍ لمنزلها بل أكاد أقول إننا كنَّا نعيش معاً وتحت سقف واحد، ومن هنا تستطيعين أن تتصوري حزني وألمي لفقدها.

بعد مرور الأسبوع الأول على وفاتها أسرعت في العودة إلى عمان لأسبقك قبل أن تغادريها إلى الضفة الغربية، حيث كان بيت شقيقتي في حالة مأتم يعجّ بالمعزين وبالمعزيّات ولم يكن لي مفر من الجلوس مع ابنتيها لتقبل العزاء، ولكن أجنبك الشعور بالحرج أمام ظروفنا الصعبة وحالة الحداد المخيّمة على البيت، هرولتُ إلى عمان لأسبق قدومك إلى الضفة كما ذكرت لك؛ وكنت مطمئنة إلى أنك لن تغادري قبل أن تتصلي هاتفياً بحنان وذلك حسب ما أخبرتني به في رسالتك. وبقيت أنتظر التلفون المتوقَّع دون جدوى مما جعلني أرجّح أن تجدد الاضطرابات ببيروت حال دون تنفيذ خطتك المرسومة والتي كان الهدف منها متابعة موضوع أطروحتك في بيروت، أو هذا ما ظننته. ولم يكن بمستطاعي إطالة الإقامة بعمان بسبب الظروف المأتمية التي حدثتك عنها. وحين عدت إلى نابلس تألمت كثيراً حين علمت من ابنتيّ شقيقتي

باتصالك الهاتفيّ من القدس وعودتك في اليوم التالي إلى عمان. ماذا أقول؟ ليسامحك الله يا ثريا العزيزة، لماذا لم تتصلي بحنان قبل ذهابك إلى الضفة؟ ولو فعلت لوجدتني بانتظارك في عمان. على كل الأحوال ما جرى جرى ولا حيلة ولا يد وكل شيء قسمة ونصيب كما يقولون.

والآن، كيف أنت وما هي أخبارك؟ أرجو أن تكوني قد توفقت في بيروت ولم تعرقل الأحداث هناك مسيرتك بالنسبة للأطروحة.

حين يتاح لك متسع من الوقت اكتبي إليّ عن تجربتك في عبور الجسر، هل كانت التجربة صعبة؟ أحيانا نصادف جنوداً ومجندات في منتهى الفظاظة، فتكون إجراءاتهم معنا غير إنسانية وتنمُّ عن نفوس لئيمة وحاقدة إلى حد بعيد، وفي أحيان أخرى تكون المعاملة أخفّ وطأة وذلك بالطبع يتوقف على مزاج الذين يقومون بإجراءات التفتيش، ولكن لا بدّ في كل الحالات من عملية (السترب تيز) واضطرارنا للسير حفاة بعد أن تؤخذ أحذيتنا إلى غرفة خاصة لفحصها على جهاز خاص والتأكد من أنَّ العابر منّا لم يخبئ في حذائه ذهباً أو أي شيء آخر من المحظورات.

سأعود إلى نابلس بعد الانتهاء من بعض الشؤون الملحّة في عمان وسوف يستغرق ذلك حوالي الأسبوع أو العشرة أيام.

أرجو أن أكون في رسالة قادمة متفتحة النفس والذهن للكتابة،

فلا تعتبري هذه السطور العجلى رسالة بمعنى رسالة جوابية على رسالتك الأخيرة إليّ، وإنما هي استدراك على ما حدث من فشل الخطة التي رسمتها لالتقائنا، ولعل الأيام المقبلة تُعوّضنا عما فات.

كل الحب والأسف والاعتذار مع قبلات الشوق أيتها الصديقة الغالية.

سلمت

فدوى

الرسالة الثالثة والعشرون

كيف أقضي وقتي؟

«يحزنني أنك شربت من نفس الكأس المرّة»

عمان 7 سبتمبر/ 1985

الأخت الحبيبة ثريا

أقبلك بشوق ومحبة

عدت من رحلة الصيف لأُفاجأ برسالة شفهية منك تتضمن استيضاحاً عن سبب «زعلي». قلت «لريما» التي بلّغتني سؤالك أنني لست زعلانة وليس هناك ما يستوجب ذلك. وفي داخلي نهضت علامات سؤال وتعجب عديدة أثارها السؤال العجيب.

في نهاية العام الماضي كتبت إليك رسالة وأرفقتها بقصيدة جديدة لي عنوانها «حكاية أخرى أمام شباك التصاريح»، وشرحت لك حكاية تلك الحكاية وكيف منعتني السلطات الإسرائيلية من عبور الجسر إلى الضفة الشرقية، وكيف عدتُ إلى نابلس مقهورة ممرورة في ذلك اليوم. وحين طال انتظاري للردّ منك على رسالتي

قدَّرت أنك غارقة في أمور التدريس والدراسة، وربما مشاغل أخرى كثيرة، وعذرتك طبعًا ولم يدر بخلدي أيّ خاطر سوى ذلك ليقيني من قوة روابط الصداقة بيننا أولًا، ثم ليقيني من عدم وجود أي سبب يستدعي الزعل من جانبي أو من جانبك.

وأستغرب بيني وبين نفسي: لماذا لم تكتبي إليّ مباشرة تستوضحينني بدلًا من تكليف ريما بتوصيل السؤال إليّ؟ إنني في الواقع لا أحب إقحام شخص ثالث في موضوع صداقتنا وما قد يطرأ عليها – لا سمح الله – من ملابسات أو سوء فهم.

أما بشأن رسالتي إليك والتي اتضح الآن أنها لم تصلك فممّا لا شك ولا ريب فيه أن الرقابة العسكرية الإسرائيلية قد حالت دون ذلك بسبب القصيدة وحديثي السياسيّ المنفعل في تلك الرسالة. وهذه ليست أول مرة يُحال دون إيصال بعض رسائلي إلى أصحابها في الخارج، والحيلولة كذلك بيني وبين بعض الرسائل المرسلة إليّ.

نشاهد الدراما على خشبة المسرح فنطهّر بذلك عواطفنا وننفّس عما فينا؛ ولكن من منّا يرغب في أن تتحوَّل حياته إلى دراما حقيقية يستمتع بها المشاهدون؟ أنا لست «ماسوشّية» المزاج ولا أحب أن أعذّب نفسي من أجل أيّ إنسان، لذلك فإنني أقاوم دائمًا ولا أستسلم حين تدركني لحظات الضعف الإنسانيّ، وهذا بالضبط ما حصل في رحلتي الصيفية هذا العام حين استشعرت الحنين إلى الوجه الذي أحببته، وكذلك حين فوجئت برسالتك الأولى

إليّ، فقد أيقظ حديثك أشواقي إليه، ولكنني بعد أن كتبت إليك الردّ شعرت بالراحة والتحرّر مما كان يضغط علي نفسي.

دعوتك السخيّة أتمنى لو أستطيع تلبيتها، ولكنها ستظل للأسف من أمنياتي التي تبقى مجرَّد أمنيات. من القلب أزجي لك الشكر على هذه الالتفاتة الإنسانية الجميلة.

سألتني عن أَحبّ قصائدي إليّ في مجموعاتي الشعرية: وحدي مع الأيام ـ وجدتها ـ اعطنا حبّاً. أُحِبُّ قصائد معدودة منها وهي قليلة. الواقع أن الإجابة على هذا السؤال صعبة، لاسيما والمجموعات المذكورة ليست في متناول يدي. ولكن هناك المجموعات التي صدرت بعد (اعطنا حبّاً)، وهي (أمام الباب المغلق) و(الليل والفرسان) ثم (على قمة الدنيا وحيداً)، بالإضافة إلى مجموعة جديدة لم تطبع بعد. أُحبّ هذه المجموعات وأعتزّ بها وهي تمثل مرحلة تطور كبير في شعري. (أمام الباب المغلق) من أقرب دواويني إلى نفسي وأُحبُّ كل قصائده دون استثناء. سأبعث إليك مع هذه الرسالة بنسخة منه هديةَ محبّةٍ وتقديرٍ خالصين. يحزنني أنك شربت من نفس الكأس المرّة، فليس هناك شيء أمضّ من موت الأخ الحبيب، ستقرأين مراثيَّ في «نمر» فربَّ حزين يتأسَّى بحزين. وآمل أن لا تستغرق رحلة (الديوان) إليك وقتًا طويلًا، فخدمة البريد بطيئة هنا إلى درجة تثير التوتر في نفوس الذين يتشوقون إلى سماع شيء من أهليهم وأحبابهم في الخارج.

أما عن كيف أقضي وقتي في نابلس، فهناك دائما ما أعمله وأحيانًا

يحاصرني الوقت. هناك علاقات اجتماعية وواجبات لا مفر من القيام بها ولو على كره. وهناك أعمال منزلية أضطر للقيام بها، فأنا أعيش وحدي ولا أحب وجود امرأة للمساعدة في البيت تجنّبًا للإزعاج وتعكير صفاء وحدتي. على العموم بيتي صغير، بل هو في الحقيقة Studio لطيف، وهو جزء مستقل تمامًا من الفيلا التي أراك سامي صورتها والتي هي ملك لشقيقتي وزوجها. فحين فكرت قبل اثني عشر عامًا ببناء بيت صغير لي اقترح عليَّ زوج شقيقتي أن أقيم المنزل على أرضه فوافقت. وهكذا ترين أن بيتي ما هو إلا ملحق (annex) للفيلا، وكم أنا سعيدة باستقلالي ووحدتي المليئة وحريتي الشخصية، أن أختي وعائلتها يفهمون مزاجي ويعرفون طبيعتي المنطوية لذلك فهم يحترمون رغبتي في الوحدة ولا يزعجونني إطلاقًا. إن زوج أختي واسمه محمد زيد الكيلاني إنسان خلوق ومهذّب إلى أبعد حدّ وهو أب لثلاث بنات – أتممن جميعا دراستهن الجامعية في عمان- وولد في السنة النهائية من المرحلة الثانوية (سنة التوجيهي).

عودةً إلى «كيف أقضي وقتي»؛ قبل عامين دُعيت لأكون عضواً في مجلس أمناء كلية النجاح الوطنية بنابلس، وهي مؤسسة أهليّة ذات تاريخ حافل منذ تأسيسها عام 1919 وقد اشتهرت بتخريجها الآلاف من رجال فلسطين الأكفاء في مختلف الميادين. ترددت في الأول بالقبول لعدم ميلي إلى الانخراط في الأعمال الجماعية،

ثم كان عليَّ أن أوافق لظروف خاصة بهيئة مجلس الأمناء، ولم أكن متحمّسة أبدًا، وانتخبت أمينة للسر. ولكني أجدني منذ شهور مسرورة ومنسجمة، فقد صار العمل على تطوير الكلية إلى جامعة بفضل عزيمة أعضاء الهيئة ورئيسها، وذلك بالرغم من الصعوبات الجمّة التي تعترض المشروع فلم يتهيأ حتى الآن الكادر المناسب للجامعة، والأساتذة الأكفاء يصعب توفّرهم بسبب ظروف الاحتلال البغيض، فليس من الهيّن أن يضحّي الناس بأعمالهم واستقرارهم ليجيئوا من أجل العمل في بلد يعوزه الاستقرار السياسيّ والاقتصادي وإلى آخره... على أن المحاولة لتجاوز كل الصعوبات قائمة، ومن يقرع الباب يُفتح له، فلعل الله يأخذ بأيدينا جميعا. أما عن بقية الوقت فبالطبع أقرأ وأكتب وأُدعى إلى قراءات شعرية في بلدات الضفة وهكذا.

حدثيني عنك أكثر مما مما فعلت. هل في نيتك الإقامة الدائمة في أمريكا؟ عرفت من سامي أن له أخًا (سمير) يدرس التمثيل في أمريكا – أم تراني مخطئة؟- وهل شقيقتك الراهبة لا تزال تعمل في الكويت؟ أرسلي إليّ صورة لك لتتضح صورتك التي في ذهني والتي ألقت عليها الستة عشر عامًا غلالة، وإن تكن شفّافة، غير أنها تؤثر على وضوح الصورة.

لك محبتي أيتها العزيزة، وليحفظك الله.

فدوى

الرسالة الرابعة والعشرون

سينما، رواية وسيرة

«أستطيع أن أتصور الوحشة التي تملكتك..»

30 أكتوبر/ 1985

من عمان أيضًا..

الغالية الحبيبة ثريا

أعزيك بفقد الوالد العزيز، ويؤسفني أن تجيء تعزيتي لك متأخرة كل هذه الشهور الطويلة، لكن لماذا لم أعلم بالأمر إلّا مؤخرًا؟ على أية حال، احمدي الله على أن المرحوم الوالد لم يقعده المرض والعجز طويلًا، فلا أعتقد أن هناك، في رحلة الحياة، أفجع ولا أفظع من أن تسبق النهاية المحتومة حالةُ صَلَبٍ طويل الأمد على فراش من الشوك وجمر الآلام. لك ولبقية ذويك دوام العافية وطول العمر.

بالنسبة لزيارتك لنابلس بصحبة الوالدة أثناء غيابي عنها فإن

أسفي لم يكن أقل من أسفك لضياع فرصة اللقاء. ولكن دعينا نأمل في فرصة تتاح لنا في المقبل من الأيام في عمان أو في أيّ مكان آخر. في الواقع إنني أستطيع أن أتصور الحصار الذي يسدّ عليك المنافذ أثناء وجودك في عمان، وهذه حال عرفتها وابتُليت بها أسفاري المختلفة ولكني في النهاية اهتديت إلى معالجتها؛ ومن هنا تريننني حين أحط عصاي في بلد ما أختفي عن أنظار المعارف والأصدقاء طيلة إقامتي ولا أظهر على السطح إلّا في الأسبوع الأخير، وحين أكون قد حققت لنفسي ما تريده من حرية مطلقة. ألا ترين معي أن في قول سارتر: «الآخرون هم الجحيم» كثيرًا من الحقيقة؟

استمتعت كثيرًا برحلتي الصيفية هذا العام إلى إنكلترا، وسرني كثيرًا أن ألتقي بالممثلة العظيمة فانيسا ريدغريف في سهرة ببيت أحد أصدقائي هناك. فهذه الإنسانة صديقة حقيقية للقضية الفلسطينية، وقد حدثتنا عن مجريات القضية التي رفعتها ضد صهاينة أمريكا الذين كانوا وراء إلغاء تعاقدها هناك مع إحدى شركات الفن. كنت قبل التقائي بها بيومين قد شهدتها تقوم وابنتها بتمثيل الدورين الرئيسين في مسرحية «تشيكوف» «The Sea Gull» وكانتا على جانب كبير من روعة التمثيل، ولا ريب في أن ابنتها الصاعدة في عالم التمثيل سيكون لها شأن كوالدتها العظيمة حقًّا. هذا وقد كنت ذات حظ سعيد إذ وافق وجودي في

لندن عرض كثير من الأفلام ذات المستوى الرفيع. فيلم «أماديوس» الذي يتناول حياة الموسيقيّ المعجزة موتزارت، شهدته مرتين؛ فيلم «الرحلة إلى الهند» للكاتب E.M. Forster ، على روعته إخراجًا وتمثيلا، غير أنني لم أجده في مستوى روعة الرواية ذاتها حين يقرؤها المرء، وليس هذا بغريب، فمن المستحيل أن ترقى روعة أي فيلم سينمائي، مهما بلغت من مستوى فنيٍّ رفيع، إلى مستوى عبقرية القصة المكتوبة بكل ما فيها من تفاصيل صغيرة وكبيرة، وبكل ما تزخر به من اهتزازات حية نابضة. وأذكر بهذا المجال يوم شهدت فيلم «الحرب والسلم» لتولستوي أو فيلم «أنّا كارنينا» وكنت قد قرأتهما قبل المشاهدة على شاشة السينما، وشتان شتان بين الأمرين. حين قرأت أنا كارنينا جذبتني بقوةٍ شخصيةُ «ليفين» في لجلجته واضطراب روحه بين الشك واليقين وحيرته وتساؤلاته أمام الموت و و إلخ.. وحين شهدت الفيلم افتقدت فيه تلك النواحي التي شدّتني إلى الكتاب أثناء القراءة؛ ومن هنا فإنني أفضل أن أشاهد الرواية أولًا ثم أقرؤها بعد ذلك فأكسب الاستمتاع بالمُشاهَد والمقروء كليهما.

مبروك كتابك الجديد عن اللغة العربية المحكية. ومبروك كتابك القادم مهما كان موضوعه، سواء عن الأبعاد الإنسانية في أدب نعيمة أو لغة «ميخائيل نعيمة»، المهم يا عزيزتي أن يحقق الإنسان ذاته من خلال عمل جيد يبعث فيه الشعور بالرضى، فليس هناك أجمل من

الإحساس الذي يمنحنا إياه وعينا بأن أيام عمرنا لا تُهدر عبثا.

سوف أبعث إليك بنسخة من كتابي (رحلة صعبة – رحلة جبلية) مرفقًا بنسخة مهداة إلى مكتبة الكونغرس (ذكرى زيارتنا لها معًا) عام 1982، الكتاب طُبع في «دار الأسوار» في عكا. وكما تعلمين فإن كل ما يصدر عن إسرائيل ممنوع ومرفوض في البلاد العربية. لذلك فقد تعاقدت مع إحدى دور النشر في عمان (دار الشروق) وقد صار طبعه في بيروت، وأتوقع أن يتمّ شحنه إلى عمان خلال أسبوعين.

أما عن المرحوم الناعوري فليسامحه الله، لقد صار في دار الحق، ولا تجوز على الميت إلَّا الرحمة. عاتبته تلفونيًّا على ما نشره في مجلة «الدوحة» عن كتابي ، بصدد قوله في ذلك المقال أنني كرستُ قسمًا كبيرًا من كتاب «رحلتي»، كرسته لتمجيد بريطانيا ... تصوري. قلت له: أنت تغافلت عن ذكر شيء مهمّ في كتابي وتجاهلته عمدًا.. لأن في ذكره ما يدحض اتهامك إياي بتمجيد بريطانيا ويتعارض مع ما هدفتُ إليه من تشويه للحقيقة. لماذا لم تتطرق في مقالك إلى حديثي الطويل عن الانتداب البريطاني في فلسطين وما عاناه الشعب الفلسطيني من أعمال القمع والقهر والعنف الذي أوقعته سلطات الحكم البريطاني بنا نحن الفلسطينيين مناصرةً منها للصهاينة؟

ولكن المرحوم الناعوري معروف بتمسكه بآرائه «وعناده» إلى حدّ الاستفزاز، فقد كان جازمًا وقاطعًا فيما يُدلي به من آراء فكرية

وأدبيـة، لذلـك لـم يكـن بقـادر يومًـا علـى الانخـراط في التجمعـات الثقافيـة في عمـان أو التعايـش معهـا.

أَتُرانـي إذا مـا تحدثـت عـن روعـة الطبيعـة في بريطانيـا، أو تحدثـت عـن علاقتـي الوديـة مـع بعـض العائـلات الإنكليزيـة، والأثـر الـذي تركتـه في نفسـي تلـك العلاقـات الجميلـة، أكـون قـد مجَّـدت بريطانيـا السياسـية؟ إن اعتراضـه علـى حديثـي عـن تجربتـي في بريطانيـا يوحـي بأننـي مجّـدت بريطانيـا سياسـيًّا، وأكبـر دليـل علـى ذلـك تجاهلـه حديثـي في الكتـاب عـن مرحلـة مـن مراحـل صـراع الشـعب الفلسـطيني مـع سـلطات الانتـداب البريطانـي أو مـا ذكرتـه عـن اعتقـال أبـي وسـجنه أكثـر مـن مـرة مـن قبـل الإنكليـز.

وبصـدد انتقـاده في مقالـه لكونـي: «انغمسـت في الحديـث عـن السياسـة والعقائديـين ويتمنـى لـو أننـي لـم أفعـل» فقـد جاهرتـه باسـتهجاني واسـتغرابي مـن صـدور مثـل هـذا النقـد مـن أديـب مثلـه، وهـل يُعقـل أن يتحـدث إنسـان عـن سـيرته دون أن يتنـاول الأوضـاع السياسـية القائمـة ومـدى تأثـره بهـا وتأثيـره فيهـا؟ إن أيـة سـيرة تكتـب عـن حيـاة إنسـان مـا لا قيمـة لهـا ولا أهميـة إذا خلـت مـن تنـاول المتغيـرات السياسـية والاجتماعيـة المواكبـة لحيـاة ذلـك الإنسـان صاحـب السـيرة. وحـين أصـرَّ علـى تمسـكه برأيـه قلـت لـه أن أكبـر عيـوب كتابـه «الشـريط الأسـود» الـذي سـجَّل فيـه سـيرة حياتـه في الخمسـينات هـو خلـوّه خلـوًا تامًـا مـن تنـاول الأوضـاع السياسـية

والاجتماعية التي عاصرها، والتي هي من أهمّ عناصر فن كتابة السيرة الذاتية.

أستطيع أن أتصور الوحشة التي تملكتك بسبب انتقال ابنتي أخيك إلى بيت مستقل مع أمهما بعد تلك المعاشرة الطويلة. ولكن هذه يا عزيزتي طبيعة الحياة، لا شيء يبقى على ما هو، والتغيير والتحوّل هما من القوانين الثابتة للحياة.

يحزنني وضع صديقك الصحيّ، ولست أكْذِبُك حين أقول لك إنني أصبحت أشعر تجاه هذا الإنسان النبيل بحنوٍّ عميق. لماذا قُدّر له أن يتعذب كل هذا العذاب؟ إن العافية هي من أكبر نعم الحياة، فيا لشقاء من يحرمون في حياتهم من نعمة الصحة والعافية.

سأبقى في عمان إلى حين. لقد بعثتُ بمفتاح صندوق بريدي مع بعض الأقرباء الذين غادروا إلى نابلس قبل بضعة أيام، وهكذا استطعت أن أحصل على كل المراسلات التي حملها إليّ واحد من أبناء أختي الكبرى. من هنا ترينني أجيبك على رسالتك المعنونة على نابلس. مساء الخميس القادم 7/ 11 سنحتفل بزفاف حبيب قلبي عمر فليتك قريبة منّا لتشاركينا فرحتنا الكبرى.

لك حبي الخالص

فدوى

الرسالة الخامسة والعشرون

تضحية وعرفان

«ليس هناك أجمل من الإحساس بأنّك أسعدت الآخرين...»

عمان 6/5/1990

الصديقة الغالية ثريا

تحياتي القلبية وقبلاتي الأخوية. وصلني أخيرًا الطرد البريدي المتضمن ست نسخ من كتابي Daily Nightmares وكان وصوله قد تأخر بسبب خطأ في ترتيب أرقام صندوق البريد حيث تقدم الرقم 7 على الرقم 8 والصواب هو العكس، وإليك الترتيب الصحيح للأرقام 926087. بالتأكيد إن وقوع الخطأ ناتجٌ من الجهة التي أرسلت إليَّ الطرد. بالمناسبة فقد حولت إليك مبلغ41,70 دولارا، أرجو إشعاري باستلامك لها. واللّه ما أدري يا ثريا كيف أرد إليك الجميل. إنني أشعر بالحرج لما أسبّبه لك من إزعاج، ولكنه «العشم»؛ عشم الصديق في الصديق والمحب في

الحبيب، فليجزك الله خيرًا.

لقد أطل عليّ عام 1990 بالخير والبركات. في مطلعه كانت الثورة قد نظمت من خلال دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية بالتعاون مع الاتحاد العام للفنانين العرب ما أسمته (أيام فلسطين الثقافية والفنية) وذلك من أجل تكريم المبدعين من أبنائها، الراحلين منهم والأحياء، وكان ذلك، كما قال رئيس الدائرة الثقافية، وفاءً من الثورة لتاريخ الإبداع الفلسطيني وإسهام هذا التاريخ في حماية القضية ومواكبتها، حتى وصلت إلى الأجيال الحالية لتسلمها إلى الأجيال القادمة.

على مدى الأيام الستة 16/1/1990–10 تتابعت النشاطات الثقافية والفنية في القاهرة احتفالًا بمرور 25 عامًا على قيام الثورة الفلسطينية، وعام واحد على إعلان الدولة ودخول الانتفاضة عامها الثالث. كما اغتنت بالندوات والمناقشات والتعليقات إلى جانب الأمسيات الشعرية، وقد استمدت هذه المناسبة أهميتها بالنسبة إليّ من كونها أول لقاء لي بالأصدقاء من كتاب وشعراء بعد مرور 22 عاما من الانقطاع والغياب. وكانت حفلة توزيع الجوائز والأوسمة هي ذروة الذروات حيث قام أبو عمار بتسليمها في جو محمل بشحنة عاطفية رائعة وتظاهرة فلسطينية مثيرة، وقد فوجئت كما فوجئ زملائي الذين منحوا الأوسمة بتقديم جائزة مالية لكل منا.

أما العقاب والحساب الذي سألقاه على الجسر من قبل سلطات الاحتلال، فالله وحده يعلم ما الذي ينتظرني هناك !

وفيما أنا أهيئ نفسي للعودة إلى نابلس تلقّيتُ مخابرة تلفونية من مدينة (دبي) في دولة الإمارات علمت من خلالها بفوزي بجائزة الشعر والتي تُسمَّى بجائزة سلطان العويس الثقافية، وكانت مفاجأة كبيرة لي حيث لم يكن لي أي علم مسبق بالأمر كله. أما حكاية الجائزة فهي كالتالي: هناك إنسنان في دولة «الشارقة» من دول الإمارات العربية المتحدة اسمه سلطان العويس، من عائلات الخليج المشهورة بتجارة اللؤلؤ قبل ظهور النفط. وحين بارت تجارة اللؤلؤ مع ظهور النفط، تحوّل سلطان العويس إلى استثمار ثروته في مشاريع كثيرة أخرى عادت عليه بالأرباح الوفيرة. وقبل عامين رأى، كإنسان متحضر يهتم بالأدب والشعر، أن يكرّس كل عامين جائزة قيمتها 200 ألف دولار بواقع 50 ألف دولار لأربعة من رواد الآداب والفنون العرب. وكانت الدورة الأولى هذا العام، حيث فاز بالجوائز: جبرا إبراهيم جبرا، وعلي جواد الطاهر وقد تقاسما جائزة النقد مناصفة بينهما، أما جائزة الرواية والمسرحية فقد فاز بها الكاتبان السوريان: حنه مينه وسعد الله ونوس تقاسما الجائزة مناصفة. وفي حقل الشعر فزت بالجائزة كاملة لم يشركني بها شاعر آخر. وقد ضمت لجنة التحكيم نخبة من خيرة الأدباء والنقاد والمفكرين العرب من مختلف الأقطار العربية ومن مختلف

التخصصات والمشهود لهم بالكفاءة والموضوعية والحياد في الرأي. وكانت هناك جائزة مخصصة للدراسات الإنسانية والمستقبلية لم يفز بها أحد فقررت لجنة التحكيم حجب الجائزة لهذه الدورة.

وعند افتتاح الحفل فوجئنا بخبر مثير، حيث أعلن رئيس هيئة الأمانة العامة للجائزة عن تطورات جديدة لشروط ولوائح الجائزة تمّ بموجبها مضاعفة قيمة الجائزة الممنوحة للفائزين لتصبح مئة ألف دولار لكل حقل من الحقول الأربعة. وأشار إلى أن السبب في ذلك يعود إلى همة ونشاط وأفكار القائمين على إدارة شؤون الجائزة، حيث استطاعوا استثمار قيمة الجائزة المرصودة في مجالات اقتصادية تجارية أتت بأرباح زادت وضاعفت أصولها الثابتة والمرصودة، وقال إن الجائزة قد تستمرّ في تصاعدها مستقبلا.

وحول إمكانية التعريف بالجائزة على نطاق أوسع، ذكر رئيس هيئة الأمانة العامة للجائزة أنه قد تقرر إرسال وفود إلى جميع العواصم العربية وعدد من العواصم الصديقة العالمية، لشرح أهداف وشروط الجائزة ونظامها الأساسي وذلك بهدف إلباسها ثوب العالمية لتضاهي الجوائز المماثلة لها، لكونها لا تقل تحضّرًا عن مثيلاتها، بل هي تجسيد حقيقي لما يتمتع به الإنسان العربي الذي يهتم بالفنون والآداب ويقيم لها وزنًا كبيرًا، ثم عرّج فذكر بالخير سلطان العويس لما قدمه للإنسان العربي معنويا وأدبيا ومادّيًا، وقال إنه بحق إنسان متحضر وفريد.

أما السؤال المهم الآن فهو: ماذا سأفعل بكل هذه المئة ألف دولار؟

أعود الآن بالذاكرة إلى عام 1986 لأستعرض شريطًا مأساويًّا، بل كابوسًا فظيعًا كابدتْهُ شقيقتي أم عمر وأبناؤها وكابدتُهُ معهم بكل ما أحمل لها ولأبنائها من عاطفة وحنان ومحبة؛ وذلك حين انكشفت لنا حقيقة مريعة هي باختصار كما يلي: اعترف لها زوجها بتورّطه في ديون تبلغ أكثر من سبعة عشر ألفا من الدنانير، هذا عدا عن البيت الذي يملكانه والذي أصبح مرهونًا لأكثر من بنك دون أن تعلم، ولا يعلم إلا الله كيف تراكمت تلك الديون والتي لم يكن لها من مبرّر فهو يرفض حتى اليوم التصريح بالحقيقة. زوج أناني، غير مبالٍ سوى بالمتع وإشباع غرائزه، ناهيك عن إدمان فظيع على تعاطي الكحول ليلًا ونهارًا. على كل حال لم يكن هناك من مفرّ، فالبيت بيع، وسُدّدت الديون إلا بعضها، وكان الهمّ الأكبر من أين وكيف تتمكن من شراء بيت آخر؟ وكل ما تبقى من ثمن البيت لا يفي لشراء بيت آخر. ثم طلع علينا ابن أخي إبراهيم جعفر بفكرة رائعة وهي تنازله لعمّته حنان عن بيت يملكه في ضاحية الحمّر مقابل المبلغ المتبقي مهما كان زهيدًا. وهكذا كان، وانحلت المشكلة ولكن ليس من جميع الوجوه، فقد كان لا بد من بناء بيت على سطح البيت الجديد ليسكن فيه عمر وزوجته وابنته مما اضطرّه إلى اقتراض مبلغ كبير من بنك الإسكان، وظل عمر متورّطًا في دفع فوائد القرض التي لا نهاية لها، دون أن يستطيع تسديد أي جزء من القرض نفسه. وقد

عانيتُ كثيرًا من الهمّ من أجل عمر الحبيب الغالي، إلى أن هبطت المعجزة الربانية، وهبطت معها المئة ألف دولار التي كرست أكثر من نصفها لتسديد الديون ولتوزيع المساعدات المالية على حنان وابنتيها مما وفّر للعائلة جوًّا سعيدًا نعموا فيه براحة البال والهدوء النفسي، ولا أحدثك عن سعادتي لكوني استطعت أن أزيح ذلك الكابوس عن حنان وأبنائها. وإنني لعلى يقين من أنني إنّما أتحدث إليك كأخت وصديقة تتفهم وتدرك جمال التضحية وقيمتها الإنسانية، فليس هناك أجمل من الإحساس بأنّك أسعدت الآخرين وعملت على انتشالهم من الأزمات وأهوالها.

كان في حسابي أن أعود إلى نابلس ولكن أختي وأبناءها يصرون على بقائي هذا الصيف بينهم.

آمل أن تكوني قد استلمت الحوالة المالية بمبلغ 41,70 دولارًا، ولعلك استلمت البطاقة (صورتي مع أبو عمار) وفيها أخبرتك بإرسال الحوالة التي أرجو إعلامي بوصولها.

أقوم هنا بنشاطات أدبية مختلفة، وقد تكرّمت رابطة الكتّاب الأردنيين فأحيت حفلة تكريم جميلة بمناسبة فوزي بجائزة سلطان العويس.

لك في الختام كل الحب والأشواق، أيتها الأخت والصديقة الغالية.

سلمت

فدوى

الرسالة السادسة والعشرون

نداء الوطن

« الوطن بعيد وأنت تكتملين به..»

نابلس 11/12/1991

ثريا

سلام عليك أينما كنت، وعهدًا بأن نظل أصدقاء. بالرغم من أن رسالتك تتضمن بعض الشكوى وعدم الرضى عن الأمور من حولك، لكنني حمدت الله على أن الأمور ليست أسوأ. فقد كنت أخشى أن تكون دواعي صمتك الطويل – والذي لم أتعوّده من قبل- ناتجة عن مشكلة صحية لا سمح الله. كل الهموم تهون أمام الصحة والعافية. أصلّي لأم سليمان وأدعو لها بالشفاء ولك بالراحة وهدوء البال.

ليست أموري بأفضل من أحوالك. أخي الوحيد وأختي الكبيرة يعانيان أسوأ وأشدّ حالات المرض. إنسانان ضعيفان ركبهما العمر والعجز، لا حول لهما أو طول. أزورهما باستمرار وأتركهما مغمومة

مهمومة. لا أحب أن أسترسل في هذا الحديث الكئيب فيكفيك ما أنت فيه.

تلقيت رسالة تلفونية من شقيقتي حنان تحثُّني على الذهاب إلى عمان حيث ابنتها هانية وزوجها قادمان من فيينا وفيها يعمل زوج هانية، سنقضي أعياد رأس السنة معا بإذن اللّه. أرجو أن ينتهي الحكم علينا بمنع التجول القائم منذ أيام لأستطيع السفر في الوقت الملائم.

يسعدني أنك ستعودين للوطن، الوطن بعيد وأنت تكتملين به. لا يحسُّ الإنسان بإنسانيته إلا في وطنه، وبين أهله وناسه. بمجيئك وإقامتك فيك سنكون أقدر على التواصل وتأكيد محبّتنا.

أختزن أحاديثي وأخباري الكثيرة لأُفضّها بين يديك في لقائنا القادم إن شاء اللّه.

أناديك من بلادك البعيدة وأحمل لك حبًّا واحترامًا في هذا القلب الكبير، وعلى الخدين والجبين قبلاتي.

بكل المحبة

فدوى

الرسالة السابعة والعشرون

نخاعٌ في ثلّاجة

«يعلم الله كم ظللت قلقةً عليك..»

عمان 6/4/1992

حبيبتي ثريا

أسعدتني بطاقتك التي تضمنت البشرى بتحسن صحتك بعد العملية. يعلم الله كم ظللت قلقة عليك، فالحمد لله أنك تتجاوبين مع العلاج وهذا يوحي لي بالتفاؤل. عندي إحساس داخلي – وإحساسي لا يخيب- أننا سنلتقي ونتسامر ونفرح بشفائك التام. المهم يا ثريا هو أن معنوياتك عالية، وتطلعك ورغبتك في الشفاء لهما تأثير كبير فيما يتصل بحالتك، فحافظي وتمسكي بإرادتك ورغبتك في الحياة، وأنت سيدة العارفين.

ابنة أختي تتجه حالتها نحو الأفضل، لقد سحبوا بعضًا من نخاعها خوفًا من تفشّي المرض فيه. وضعوا النخاع في ثلاجة إلى أن يحين موعد إرجاعه بعد الشفاء التام وإجراء العملية الأخيرة،

ومن حسن الحظ أن العلاج الكيماوي لم تصحبه الصعوبة المألوفة كالغثيان وسواه. وها نحن ننتظر ونضرع إلى الله أن يرفع عنها هذا البلاء.

زوجها إنسان عظيم، يتفانى في تضحياته من أجلها. لقد أخذ إجازة طويلة من الجامعة الأردنية ليبقى إلى جانبها. كانت تكاليف العلاج معضلة المعضلات ولكن الله يسَّر الأمور حيث تكفل جلالة الملك بتقديم المساعدة الكاملة سلَّمه الله وأبقاه. يظل جوهر الخير موجودًا في هذا العالم مهما استشرت قوى الشرّ فيه. بالمناسبة زوجها سلطيّ اسمه د.ماهر الحديدي وهو إنسان رائع بكل مقاييس الروعة ونبيل بكل مقاييس النبل. كم أحبه وأحترمه !

سأغادر إلى نابلس قريبًا، كان عليّ أن أنتظر صدور كتابي الجديد (الرحلة الأصعب) وهو الجزء الثاني من سيرة (رحلة صعبة)، ويتضمن تجربتي تحت الاحتلال. وسأرفق هذه الرسالة بنسخة منه لك.

شتاء هذا العام لم يكن قاسيًا كالعام الماضي. بالنسبة لوجودي في عمان فقد شاركت ببعض النشاطات الأدبية والندوات الشعرية. التقيت بريم عيسو في ندوة شعرية لمحمود درويش خُصّص ريعها للانتفاضة في الضفة الغربية. وقد تحدثنا عنك بحب وقلق. أنت حبيبة الجميع يا ثريا، أيتها الإنسانة الطيبة المحبّة والمحبوبة.

حفظـك اللّٰه لنـا.

حنـان بخيـر والحمـد للّٰه. سـعيدة بأولادهـا وأحفادهـا، وهـي جديـرة بـكل خيـر لأنهـا خيّـرة فعـلًا وطيّبـة حقًّـا.

مع حبي وقبلاتي وأشواقي

فدوى طوقان

الرسالة الثامنة والعشرون

إدوارد سعيد

«إنسان عظيم أقدّره كل التقدير مشاعره الوطنية..»

نابلس 19/6/1992

الأخت الحبيبة ثريا

أحلى ما في بطاقتك بشرى مقدمك في آب. سأنتظرك بحب وشوق في مدينتي نابلس. هذا الحلم الذي آن له أن يتحقق بإذن الله.

أتمنى أن تكون صحة الوالدة جيّدة، وأصلي لها بدوام العافية.

رحلتي إلى إيطاليا عبأتني بشحنة من السعادة والرضى لا أزال منتعشة بها,

إنّني على موعد غدًا بلقاء ثروة فلسطينية رائعة. سيزورني غدا العاشرة صباحًا د. إدوارد سعيد. إنسان عظيم أقدّره كل التقدير

مشـاعره الوطنيـة الصميميـة، وأحتـرم فكـره العميـق الحـر.

زارتنـي في عمـان سـيدة أمريكيـة مـن السـفارة هنـاك، وذكـرت لـي أن شـقيقتك درّسـتها اللغـة العربيـة وهـي تعرفـك أيضـا.

أحبك

فدوى

الرسالة التاسعة والعشرون

اللّٰه والأمل

«هذا الوجه البغيض للشهرة يحرمني من مصادقة نفسي..»

1/8/1995

الأخت الحبيبة ثريا، ماذا عساني أقول لك ؟ لست أدري كيف أبدأ وكيف أنتهي. انزعجت كثيرًا من الخبر الذي حملته إليّ بطاقتك، خبر عودة المرض الخبيث.

ثريا حبيبتي، من المحزن أنّه لا سلطان على تصاريف هذه الأمور الغامضة المرعبة. كل ما أستطيع قوله هو أن تتجمّلي بالأمل والثقة برحمة اللّٰه. إنني، كلما واجهتني ظروف فوق الاحتمال، أقول إن اللّٰه في السماء والأمل في الأرض. كُلّي أملٌ بأننا سوف نلتقي هذا الصيف في عمان بإذن اللّٰه، ونعيد ونستعيد جلساتنا الحميمة وأحاديثنا القلبية الأخوية.

بدأت أشعر بالإرهاق والملل من كثرة الالتزامات الاجتماعية والأدبية التي تحاصرني من كل جانب. هذا الوجه البغيض للشهرة يحرمني من مصادقة نفسي وخلودي إلى العزلة التي أحبها والتي تشكل ثروة حياتي بما تتيحه لي من متعة القراءة والتأمل والكتابة.

اسلمي لي. أقبلك وأحبك

فدوى

الرسالة الثلاثون

سلالة السرطان

«هل هناك حكمة وراء ذلك؟»

صيف 1996

ثريا، أيتها الحبيبة الغالية

أحزنني جدًّا فقدك للوالدة الحبيبة، أستطيع أن أتصور مدى الوحشة التي تعانينها بعد رحيلها عنك وهي التي كانت رفيقة دربك وحبيبتك وصديقتك على مدى حياتك كلها. ما أقسى وما أكبر الألم الذي يلفُّ أعماقنا حين يسدل الموت جناحيه على الوجوه التي نحبّها.

ماذا أقول لك؟ إنني أحس معك وأشاركك حزنك وألمك. إنك تعرفين تجربتي مع الموت، هذه التجربة التي تقول لي إنّ الموت هو الحقيقة الوحيدة في الوجود، وإنّ العذاب والموت هما محور حياة الإنسان، ومن يقوى على الهرب مما قُدّر له؟

على كل الأحوال، يظل حضور أحبابنا الراحلين أقوى من الموت. إن الأعزاء والأحباب لا يفارقون قلوب مُحبّيهم حتى في الموت.

صدقيني يا ثريا حين أقول لك إنّك دائمًا في تفكيري وقلبي. أود أن أعرف دائمًا عن أحوالك الصحية، وأدعو لك أن يمتعك الله بنعمة العافية وراحة البال.

ابنة أختي لا تزال تمارس المعالجة بالأشعة، كل يومين تذهب إلى تل أبيب، ولا أدري ما المصير الذي ينتظرها، فقد علمت أن نوع السرطان الذي تعانيه من أندر أنواع السرطان. كم أتألم وأنا أراها تعاني ما تعاني وهي لم تزل في عزّ شبابها. هل هناك حكمة وراء كل ذلك؟ وإن وُجدت فما هي؟ ولماذا؟

أحبك يا ثريا

فدوى

نماذج

من رسائل فدوى طوقان

وبعض صورها الشخصية مع ثريا حداد

1977/9/6

العزيزة ثريا

مرحبا بك . اقبلك من القلب .

فاجأتني رسالتك العزيزة . بل ، انني اذكر الامر ، فحديثك عن زيارتك لي عام 1961 ألقى الضوء على زاوية معتمة من ذاكرتي ، واجد انه تعذر ذاكرة فظّت الحياة الصعبة مخزونها من الذكريات الحلوة . ها انا اعود الامه الى غرفتي في بيتنا القديم ، وها انا اراني هناك اجلس معك ، ومع شقيقتك - انه لم يخفى تصوري - .

ما اغرب هذا!؟ مرة اخرى اجلب بك ، انت يا احدى سامي ويا صديقة ، وما اجمل انه تقوم الصداقة بين شقيقين يجمع بينهما التفاهم والتعاطف الاخوي الحميم .

سوف ادخل في صميم رسالتك الغالية مباشرة ، وساه هو بضبط القافه وجوهرها .

لكن ، قولي لي يا ثريا ، من اين ابدأ ؟ ما اصعب هذا الامر ! تقولين انه حديثك عني طويلا .. وتقولين انه كان مسرورا بل سعيدا وهو يستعيد الحديث والذكريات ، ويقرأ الاشعار . ويسعدني انه اسمع منك هذا ، انا التي تخضن العواطف تلك التجربة التي بلغت من الجمال حدا يصعب معه التحدث عنها ، تلك التجربة التي لا تقدر بثمن لانه عالم الروح والقلب لا يثمن ، ولكن ...

هل حدثك سامه عن الصمت الجليدي الذي اكتنف صداقتنا الجميلة؟ انه الصمت لغة الغرباء ، فهل قال لك اننا اصبحنا غرباء ؟ في قلبي اشياء وفي نفسي اشياء ، وفي فكري اشياء ، ولكني اصمت

٤

وأكفّ عن نفسي رثّة ما أريد قوله لديقال إلّا في جلسة أكون معك فيها وجهاً لوجه وليس عبر هذه المحيطات التي تفصلنا .

من اية حال ، كانه آخر ما جاءني منه رسالة بتاريخ ١٩٧٦/١٢/١٧ هنّأني فيها عن نيته في البحث عن عمل في ايطاليا . واجبته بتاريخ ٧٧/١/٥ وانقطعت عني بعد ذلك رسائله فلم يكتب الّا بعد ستة شهور ، وكانت بطاقة تحتوي على ستّ كلمات ارسلها من ايطاليا . ومن الفضول المحبّي انني كنت في ايطاليا في نفس الوقت ووجدت البطاقة تنتظرني هنا بعد عودتي من رحلتي في الاسبوع الاول من اغسطس .

أمّا لماذا لم يتذكر انه سيأتي الّا بعد ستة اشهر ، اما لماذا لم يفعل ذلك الّا وهو في مكان ما في ايطاليا ، فهذا ما بقي غامضاً بالنسبة لي .

شئ آخر ربما لم يتحدث به اليك . شئ يتعلق بزميل ردئ له اصطلحنا على تسميته باكم "IAGO" كانه قد عمل على تحطيم صورة سامي في نفسي ، ولكنه إعجاب واعتزاز بسامي كانا اقوى من كل النذالات التي تعمل في الظلام . ورضيت انه تمثلني نفس "اياجو" بالحقد عليّ ، وانه يحمل لي العداء والضغينة الى الابد . رضيت لهذا لكي أحمي طهر سامي من الكلاب العاقرة . فماذا كانت النتيجة ؟ باختصار :

Sami has let me down !

سليه وهو يفسّر لك ، اما انا فانني عاجزة عن التفسير وفق كلايم - مع انقطاع سامي عنه اي اتصال - أزداد شعوراً بالعجز عن التفسير . ولقد كانت مقابلته الوديّة مع ذلك الزميل من الهواء ، إيذاناً منه بأنه كل ما بيننا وصل الى نهايته . ومنذ ذلك اليوم لم أحاول التفكير في اسم صرفنا

٤

تعني [redacted] أو كثيراً بالنسبة له. وكم يحزنني ان تتسرب الأشياء الى ما انتهت اليه. من طبعي انني لا اشكو همي لمن يجرحني الآخرون، بل التزم الصمت كأسلوب نظيف للتعبير عن نفسي.

مع كل ذلك، انني مشتاقة اليه، بل مقابرة، مشتاقة، مشتاقة كثيراً.. كتبت في روما قصيدة عنه (مصاب تموز لروما) فقد كان وجهه يطاردني في كل مكان هناك، وادركتني لحظة ضعف وأنا في ميونيخ بألمانيا، فقد كان حنيني اليه يشتد يوماً بعد يوم، وبيّضت القصيدة وادرجتها ضمن مجموعة كتبت عليه عنوانه في المنزل، ونزلت الى زاوية صندوق البريد في قاعة الفندق لأضع طابع البريد.. وفجأة قام ذلك العالم الفني الذي صنعني من شغفي وعبقريتي، وعدت الى غرفتي اغالب رغبتي في البكاء، ولم أبك، وانتصرت على ساعتي..

وفي لندن - ولم اكن اعلم أنه في الخارج - ورغماً كان قد عاد إلى بيروت - قاومت الرغبة في الاتصال به وكنت اموت شوقاً اليه، وانتصرت.. حتى "هوبيلر" حيث كنّا نلتقي في العام الماضي تجنبت المرور به وكأنّ اجمل ايام حياتي لم تنزل هناك من بين اصابعي وانا احاول التمسك بها وايقاف الزمن معها.

لقد قتل سامي كل الأشياء الجميلة، وفي يقيني، بعد ان عرفته، انه يملك موهبة تدمير الأشياء، حتى لو كان الحفاظ عليها لا يكلفه اي جهد او تضحية.

عفواً يا ثريا، هذه اول مرة اجد فيها متنفساً لما أنا عليه من ضيق وحزن. فاجد انه تفجيني وتفرّغني. لك محبتي أيتها الانسانة الطيبة. وردة طوباك

بابل ١٢/ أكتوبر ١٩٢٧

عزيزتي ثريا

مباركة انت . لا ريب في ان لك رائعة . ولكن دعيناظري هذا الموضوع . اخشى ان تكون رسالتي قد عكست امام عينيك صورة غير صحيحة عني غير صورتي الحقيقية . لا تخافي مرّ اليأس العزيزة . ليس من طبعي التخاذل او الرثاثة .. لقد هاجمتني الحياة ولا تزال تحاربني من جبهاتها المختلفة ، وقد خسرتُ الكثير من معاركي معها ولكنها لم تستطع ان ترهقني قط ، لأنني اقف دائما امام كبرياء الصخر الذي يطلّ عليه الشمال المفتوح من يميني والمشرق من ناصية جبل جرزيم . كوني متأكدة ان هذه الحياة لن تستطيع ان تهزمني بلؤمها مهما بلغت جبّرتها .

احب الحب ما دام قوة بنّاءة تساعد في ايجاد التوازن النفسي في الانسان وتعطي الفكرة الرائعة والمذاقة الحلو للحياة . وحين يبدأ الحب في التحوّل الى قوة مدمّرة خرقان ما افلوه الباب في وجهه . اهلا له وباركه ما دام يُشعل خيالي ، فالتصور به مرضوعة بعاطفة شعرية فاضحة وألوان سعيدة . ولكني ارفضه واهزأ منه حين يتحول الى عود نقاب يحرقه ويشعل الآلام . اقول لك يا ثريا رصيدي لم يعد لديّ طاقة من تحمل الالم ، انه موت ابطيء ولكني قد افقدت القدرة من التحمل فاصبحت اتجنب كل ما من شأنه ان يقودني الى طريقه المحتوم . لازلت ترتبني كزهرة عباد الشمس التي وجهي حيث تلون الشمس . انني اكره البرد والظلمة ، اكره الليل حيث تنطفئ فيه النجوم ويختفي القمر وراء السحب الداكنة الكثيفة ، ولا احب الا انه تبقى الحياة من حولي حركة ، اكون جزءاً منها غير منفصل عنها ، والالم - بالنسبة لي - شلل رهيب لحياتي ويوقف حركتها . لذلك فانني اخافه دائما ، واهرب منه واسد في وجهه المسالك بقدر استطاعتي .

لعلك ادركت الآن لماذا اريد ان أمزق هذا الفصل من كتاب حياتي . جميل ان

٢

تشاهد الدراما في مدينة المسرح فتظهر بذلك عواطفنا وتنفس عما فينا ، ولكن من منا يرغب في ان تتحول حياته الى دراما حقيقية يستمتع بها الاخرون ؟ انا لست قاسية القلب ولا احب ان أعذب نفسي من أجل ان اثير اعجاب الناس ، وذلك فانني اقاوم دائما ولا استسلم لهذه التركيبات الضعف الانساني ، وهذا بالضبط ما حصل في رحلتي الصيفية هذا العام حيث استشرت الحنين الى الوجه الذي احببته وحفظ وكذلك حين فرحت برسائل الاولى التي ، فقد ابقيت رسائله اشواقي اليه ، ولكني بعد ان كتبت الرد شعرت بالراحة والتحرر مما كان يضغط على نفسي .

لقد مرت السنين ثقيلة ، استطيع تتبعها ، ولكني ستظل للأبد من امتاعي التي تبقى مجرد امنيات ، من الغريب ان يكون التكرار في هذه الاشياء الانسانية الجميلة .

سألتني عن أحب قصائدي الى في مجموعاتي الشعرية - وحبي مع الرسم - وحبي للأطفال . أحب قصائد معدودة من [illegible] هي قليلة . الواقع ان الاجابة على هذا السؤال صعبة لانها والمجموعات المذكورة ليست في متناول يدي الان . ولكن هناك المجموعات التي صدرت بعد اغترابي وهي (امام الباب المغلق) و (الليل والفرسان) ثم (على قمة الدنيا وحيدا) بالاضافة الى مجموعة جديدة لم تطبع بعد . أحب هذه المجموعات واعتز بها وهي تمثل مرحلة تطور كبير في شعري . [امام الباب المغلق] من اقرب دواوين الى نفسي وأحب كل قصائده وهذا استثناء ، سأبعث الدين مع هذه الرسالة بنسخة منه هدية محبة وتقدير خالصين ، يحزنني انني شربت من نفس الكأس المرة ، فليس هناك شيء أمض من موت الأخ الحبيب ، سنقرأ بن مراثي "تموز" فرثي حزين يتأسى بحزين ، وأعلم انه لا تستغرقه رحلة (الديوان) الدين وقتاً طويلاً فخدمة البريد بطيئة جدا الى درجة تثير التوتر في نفوس الذين ينتظرون الاسماع شيء من اهلهم واحبائهم في الخارج .

اما عن كيف اقضي وقتي هنا ، فانا دائما ما اعمله واجباً يحاصرني الوقت . هناك مسرقات اجتماعية وواجبات لا مفر منها القيام بها ولا بد منها . وهناك اعمال منزلية اضطر للقيام بها ، فانا اعيش وحدي ولا احب وجود امرأة للمساعدة في البيت تجنباً للازعاج وتعكير صفاء وحدتي ، فلي الهوم بيتي صغير ، بل هو في الحقيقة Studio لطيف ، وهو

٤

٢٨ تشرين الأول

جزء مستقل تماماً من القمر التي أراك سامي صورتها والتي هي ملك لشقيقتي وزوجها . فحين فكرت قبل اثني عشر عاماً ببناء بيت صغير لي اقترح عليّ زوج شقيقتي انه اقيم المنزل على أرضه فوافقت ، وهكذا ترين انه يلي ماهو الآن ملكه (annex) للقمر ، وكم انا سعيدة باستقرار وحدتي المليئة وحريتي الشخصية ، انه اختي وعائلتها يفهمون مزاجي ويعرفون طبيعتي المنطوية لذلك فهم يحترمون رغبتي في الوحدة ولا يزعجونني اطلاقاً . انه زوج اختي واسمه محمد زيد الكيلاني إنسان خلوق وهو اب لثلاث بنات واثنين صبيان ، احمد ستدرس الجامعية في عمان وولد في السنة الرابعة من المرحلة الثانوية (سنة التوجيهي)

عودة الى "كيف اقضي وقتي" . قبل عامين رغبت لأكون عضواً في مجلس امناء الكلية الجامع الوطنية بنابلس ، وهي مؤسسة اهلية ذات تاريخ حافل منذ تأسيسها عام ١٩١٩ وقد اشتهرت بتخريج الالاف من رجال فلسطين الاكفاء في مختلف الميادين . ترددت في الأول بالقبول لعدم ميلي إلى الانخراط في الاعمال الجماعية ، ثم كان سرّ انه أواخر ظروف خاصة برئيسة مجلس الامناء ، ولم اكن متحمّسة ابداً ، واتعبت امينة للسر . ولكني اجبني منذ شهور مسرورة ومنسجمة ، فقد صار العمل من تطوير الكلية الى جامعة بفضل عزيمة اعضاء الهيئة ورئيسها ، وزدت بالرغم من الصعوبات الجمة التي تعترض المشروع فلم يتبقّ حتى الآن الا القاء المحاضرات ، والاساتذة الاكفاء يصعب توفرهم بسبب ظروف الاحتلال البغيض ، فليس من الهيّن ان يضحّي الناس بأعمالهم واستقرارهم ليجيئوا من اجل العمل في بلد يعوزه الاستقرار السياسي والاقتصادي والى آخره ... على ان المحاولة لتجاوز كل الصعوبات قائمة ، ومن يقرع الباب يُفتح له ، فلعل الله يأخذ بأيدينا جميعاً . اما عن بقية الوقت فبالطبع اقرأ واكتب وأدعى الى قراءات شعرية في بلدان الضفة وهكذا !

هذه بعض اكثر ما فعلت . هل فكرت الاقامة الدائمة في امريكا؟ عرضت عليّ انه لي اخاً (سمير) سيرة التمثيل في امريكا - أم ترانى مخطئة؟ — وهل شقيقتك الاهبة لا تزال تعمل في الكويت؟ ارسلي الي صورة لك لتتضح صورتك التي في ذهني والتي الفتك قبل ستة عشر عاماً فحسب ، وانه تكبر شقائقه ، غير انك تؤثر عليك وضوح الصورة .

لك محبتي اينما العزيزة ولتحفظك الله .

فدوى

٦٧/١٤/٨

عزيزتي الغالية رنا

سلمك الله وعافاك مما تشكيه منه.
ارجو انه تكوني الآن قد تحررتي من الام الرأس.
تراك ترهقين نفسك بالعمل اكثر من طاقتك؟
ارجوك الا تفعلي. لو تعرفين كم انت قريبة إلى
قلبي، وكم يزعجني انه يصيبك السوء او الاذى،
ابعد الله عنك ما يسوء وما يؤذي.
تسرني طمأنتك عن الصحة قبل اي شيء، ولكن
يسرني اكثر (سعيد) ايضا واذا كان لابد من

Copy Right: I. Amad

انه ينتهي كل شيء في هذه الحياة فليس
من المحتوم انه يتم ذلك في جو مشحون بالمرارة
وسوء الظن. سيظل لنا صديقا حميما
مهما باعدت بيننا المسافات والحواجز التي
تقيمها الكبرياء والمظاهر.. ودعينا انه نزعم
للحقيقة التي تقول انه الحب يوسع القلوب ويضيق
العقول.. أو هكذا انا على الاقل! شكرا
يا رنا لبطاقتك وغنياتي الطيبة وتمنياتي لك
وللعائلة العزيزة بعام جديد سعيد مليء الرضاء
والرخاء وهدوء البال. وال اللقاء في رسالة قادمة.

حمزة

حقوق الطبع محفوظة
مرقان فاتح الحمد

SUNRISE AT THE DEAD SEA
LEVE DU SOLEIL A LA MER MORTE
SONNENAUFGANG AM TOTEN MEER

236

٧٨/٩

عزيزتي رنا لك التحية والمحبة والشكر
على الرسالة والهدايا والصورة . ردك على رسالتي
ممتع ، وراسلك العامرة بالعقل والحكمة
ووضوح الرؤية لا تستحق الإرجاع . ارجو
انه تلقى الآن وانا في احسن حال . لم
اكتب اليك حتى اليوم لاننا نعيش هنا قلقا
السياسي الذي يصرفنا حتى عن الحلوة بانفسنا
لنتحدث الى اصدقائنا الأعزاء . الخبر الذي
صدمة السادات على الأمة تحطم تحت قدميه
قبل الوصول وكلنة (ريجان) بانه (سيلحق)
الدنيا اذا لم تسلحه امريكا كما تسلح اسرائيل
هذه هي حياتنا العربية يمتزج فيها دائما الضحك
بالبكاء والسلام العربي كرجل عاجز قاسي
القلب يتلقى الضربات من كل جهات الارض
ولا راحم الا الله الذي يسود انه قد هجرنا
الى غير رجعة . اغلق على غربتك الجغرافية
فالهجرة والعمل وراء حدود الوطن وجه من
وجوه النشاط الانساني والانسان توأم
دائما لاكتشاف المجهول واختراق الاقاليم الجديدة

انما الغربة الحقيقية هي غربتنا هنا في ارض
الوطن تسحقنا بثقل الاحتلال الفاشيستي
ويلتف علينا بعبان الاستيطان .. نشعر
الطوفان لعله يجيء فيغسل الاجرام وكلنه
كل المؤشرات تقول : لا خلاص ! صدقني
انه مجرد الحياة في قلب هذا الواقع المرير
شجاعة وبطولة فالهم زودنا بغير منها .
كل ذنبنا نحن الفلسطينيين اننا نرفض الانقراض
كالهنود الحمر وانا نتناسل كثيرا وهذا
ما يجعل امة اسرائيل مهددا بالاطفال
الذين لم يولدوا بعد .. الكتب لك الآن
والبلدة مغلقة والجيش يلاحق الاطفال
الذين يرجمون الدبابات بالحجارة .. ويعتقل
تلاميذ المدارس .. وليس وليتم ويميز
قليلا من هذا الشعب الذي لا يعرف الخوف
ولا الاستسلام . يعفوك يا ثريا وسامحيني
على هذا الحديث الكئيب . لعلنا نلتقي في
عمان وتلتقي سائر اصدقائنا في الصيف .
الى حين - فدوى

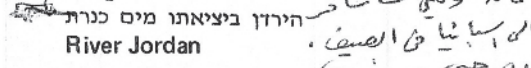

COPYRIGHT RALPHOTO PRINTED IN THE HOLY LAND
RALPHOT
RALPHOT
3496

٢٥

نابل ١٩٧٩/١/٥

عزيزتي الغالية ثريا

لك مني الشوق والمحبة . لعلي كنت رديئة طوال العام الماضي ، ولكنه لعل لي عذراً .. تعفوان . على كل الاحوال يظل مكانك في قلبي محتلئاً بك .

توهبت بسامي وهو يطل بهجة اليوم من امريكا ، وقد سعدت بالهاتفة هذا . كتبت اليه الامر واجب ان تصله بطاقتي ، اذ انني لست على يقين من صحة الجزء الاخير من عنوانه : - 9 .N.U.S - ورسائله بعيدة الامر عن متناول يدي فلا استطيع العودة اليك للتأكد من صحة الحرفين والرقم 9 .

قضيت في عمان عشرة ايام وعدت ظهر هذا اليوم ، كئيبة ، مغمومة . ولكنه بطاقة سارة انتشلتني الى حد ما . ابن احمد بنلاشي تحت زمهرير الشيخوخة شبافشيأ ، وقد تركته في مستشفى الجامعة الاردنية . عمر ، ابنه الاكبر ، سيغادر الى بريطانيا بعد غد فتعطلت الدراسة بلغت نهايتها ، وقلبي متعلق به تعلقاً شديداً . واخشى عليه من قسوة هذا الشتاء ، فهذا اول اعوامه الدراسية في انكلترا ، لقد تشبث بي انه ابقى حتى يوم سفره وكلني هرت معه لعدم قدرتي على وداع الأحبة في اللحظات الاخيرة . لهم

اخواني اصدقائي اينما حللت ، الاوضاع السياسية تظل تقلقني فيما هي تزداد سوءاً يوما بعد يوم . اخشى انه نكون قد انزلقنا الى ما يصبو اليه العدو الطموح والخبيث .

ما كان يجب ان القي هذه المحاضرة الكئيبة عن سطور البؤس وغيوم مطلع عام جديد اتمنى لكل فيه اطيب واجمل الاماني ، راجية لكل وللعائلة عموما السعادة ونعمة العافية .

انهت البؤس بآخر حلقة نشرتها في مجلة (الحرية) من مخطوطة كتابي : (رحلة صعبة - رحلة جبلية) وقد سرني انه نشرت ثماني حلقات خلال العام الماضي لاقت ترحيباً لم اكن اتوقعه من القراء الممتازين ناهيك بالقراء العاديين . فارجو ان تجدوا في هذه الحلقة شيئاً من المتعة .

يقول سلامي ومحبتي الى سامي اذا كتبت اليه ، من غريب المصادفات انني ذكرته ومحبتي اليه سهواً مع الصديقة د. نوار حداد في اخر رسالة كتبتها اليه وتحمل نفس التاريخ الذي حملته رسالة سامي المرسلة الي من امريكا . اثرت انه اقطع حبل المراسلة لأريحه من هموم الكتابة ، فقد لاحظت انه سامي يضيق بعملية كتابة الرسائل ، هو يحب ان يتلقى من الاخرين ولكنه لا يقوم بواجب الرد الا حينما تقرأ ومتأففاً . لذلك وجدت من الافضل انه اجنبه هموم الكتابة . ولكنه يظل بالنسبة لي صديقاً حبيباً .

لك خالص اشواقي مع الحب . سعاد

تل ابيب ١٩٧٩/٢/٤

تريا ، يا صديقة ، يا حبيبة

الشيك بالمبلغ وقدره ارده اليك مع الف "سلامة خيرت" و "يا عيب الشوم" . والاعداد المطلوبة من المجلة سوف ازودك بها في اول فرصة تتاح لي للسفر الى حيفا وسيكون ذلك في نهاية ايار .

اهدي البريد الزهيد لم تبرط ميزانيتي فاطمئني .

اسعدني قولك انك وجدت متعة روحية في قراءة الفصل المنشور في المجلة . اما عن المجلة نفسها التي احببت بكل تأكيد انه اضع امامك خلفيتها الايديولوجية . تصدر المجلة في حيفا عن الحزب الشيوعي في اسرائيل الذي هو مزيج من عرب ويهود غير صهيونيين . والحزب مصرح به رسمياً من قبل الحكومة او الدولة وله ممثلون في البرلمان (الكنيست) . ولهذا فان قضاءه بملكون حرية التعبير عن ارائهم سواء أفي البرلمان أم في الصحافة . ومن هنا كان الحزب الشيوعي ظلة يحتمي بها الواعون من عرب اسرائيل المضطهدين في اسرائيل ومن هنا يملك الشيوعي العربي في اسرائيل حرية انتقاد السلطات وتعرية الصهيونية واظهار مخازيها العنصرية ولكن هذا لا يعني انهم بمنجى من العقاب النفسي الذي

يواجهونه، لأحكام الإقامة الجبرية وعرقلة المصالح الخاصة وقطع الرزق وما إلى ذلك. بالمناسبة، كل شيوعي عربي هناك ممنوع من زيارة الضفة الغربية والقطاع، كما أن صحف الحزب محظور توزيعها هنا ولا تصل إلا بوسائل ملتوية. ومن جهة أخرى أود أن أحيطك علماً بحقيقة كوننا في الضفة محاصرين فكرياً من كل الوجوه، حيث الكتب والصحف العربية ممنوعة علينا ما عدا المجلات الرسمية «كالكواكب» «وهو عد» «وهواء» وحديثاً الذاكرة، في العام الماضي أصدرت سلطة الرقابة قائمة بأسماء (٨٦٥) كتاباً عربياً بين قصة وبحث وشعر وقالت بوجوب إخراج المكتبات العامة والخاصة من هذه الكتب - ومن ضمن دواوين الشعر - كل موضوع يتناول من قريب أو بعيد القضايا العربية والقومية العربية والوطن العربي أصبح (تابو) محرماً علينا. بالإضافة تحويل واشاعة الإحساس بالعدمية واللاجدوى في أحيائنا الحديثة، ووقانا الله شر ما هو أعظم.

هل أفهم من حديثك عن موضوع أطروحتك «الأبعاد الإنسانية في أدب غنيمة» أنك تغلبت على مشروع الأطروحة السابقة في عالم اللغويات والصوتيات؟ أتمنى أن يكون ذلك كذلك. فالإنسان والإنسانية كموضوع للدراسة أهم في رأيي المتواضع من ذلك العالم الجاف. أنى شخصياً

٣٤/٤/٤

لا اعرف الا القليل عن هذا العالم الحديث ، ولكنه يبدو انه له اهمية وانه المستقبل له ، فما اكثر الذين يختارون موضوعاً للتخصص الزري في هذه الايام .

س/ ذكر نعيمة : كنت ما بين ١٩٤٠ - ١٩٥٠ شديد الافتتان به وبكبار وشعراء المهجر عموماً . ولقد لم اهتديت الى اصالتي الشعرية . فقد كنت قبل ذلك انوء تحت اثقال ما يسمى بالديباجة والجزالة ومتانة تركيب الجملة الشعرية ، اي انه اهتمامي كان موجهاً نحو العناية بالاسلوب والزخرف اللفظي وطنين الكلمات ورنينها و ... الخ ، مما كان يقف حائلاً دون التعبير والبساطة والصدق في التعبير . ولم اتحرر من تلك القيود التقليدية اللغوية المصطنعة في الشعر الا بعد قرأت كتاب نعيمة (الغربال) وتعرفت من خلاله على حقيقة الشعر وجوهره الخالي من الزيف والتصنع الكاذب .

لعل الحد في تعليقك على (تعلقي بالاطلال) فيه امر متعب حقاً . بالمناسبة .. ليس كل الاطلال .. فمنهم من كرهتهم فعلاً وكرهوني كما سترين في بعض فصول الرحلة الصعبة التي افتتحت بهذه الجملة : [لقد لعبوا دورهم في حياتي ثم ادخلوا في مطاوي النسيان] .

اما بالنسبة لرحمه - الذي لم يبلغ تعلقي به مبلغ تعلقي

بابهيم ونحن منتظر ، والذي أظل الأفق الكبير البعيد الذي يتخذ الصفة السلطوية للأب - بالنسبة له أحزنني انه اراه يتهدم فجأة ويبدو الظل ، هو ، ذلك الانسان الذي ظل يسابق بقايا الحياة بكل ما عنده من حيوية وذكاء وحب للحياة حتى آخر الشوط . انني بطبعي لا اطيق رؤية مظاهر الشيخوخة المتمثلة في المرض والعجز والانحطاط الجسدي . لقد ظللت طوال عمري اتمنى ان اموت وانا واقفة منتصبة القامة في منتصف الطريق . ان منتهى البؤس الانساني انما يكمن في الانهيار الطبيعي للكيان الحي . وفي الجمود الذهني الذي يرافق الشيخوخة بما يجرد الانسان من مظاهر انسانيته .

اتوجه الى لقائك توقاً حقيقياً . انا من موعد مع (اطاليا) من الشهر الخامس - مايو - ولم اضع زيارة انكلترا من برنامج الصيف القادم . ولكنه اقتراح جعلني اعيد النظر في الامر . بس كل حال سنرى الى ذلك فيما بعد ، فلا زال هناك فسحة من الوقت للتفكير واتخاذ القرار .

تحياتي الى سامي القابع في ضباب لندن الابدي . سرني انكم امضيتم ايام جميلة هناك . نلتقي عن قريب ايها الاخوة الاحباء .

اهتم سلمى بالمحبة والشوق البك ارفع الصديقة الغالية

حبي

نابلس ١٩٧٩/٣/١١

الصديقة الأثيرة ثريا

مع الحب والشوق أرسل اليك الفصول الثمانية التي سبق نشرها والتي كنت قد جمعتها معاً في إضمامة واحدة بعد أن فصلت الحلقات من مكانها في المجلة، وذلك بسبب خطأ في الترتيب الزمني وقع في الحلقة الثانية، مما اضطرني الى اجراء الترتيب اللازم في الحلقات الثانية والسابعة والثامنة. كما انني اضفت صفحة لم تنشر وتجدينها ضمن الحلقة الثامنة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

استعمال حرّ الحصول على الاعداد التي وعدتك بها، وذلك بسبب نقاط التفتيش على الطرق. فمع تصاعد اعمال المقاومة داخل اسرائيل خلال الشهور الاخيرة ازداد التفتيش دقّةً وصرامة، حيث يُؤمر المسافرون بالنزول من السيارات ثم يجري البحث والفحص الذي يشمل المسافر وما يحمل، بالاضافة الى تفتيش هذه السيارات وحقائبها الخ. لذلك رأيت انّ افضل ما اعمله هو ان ابعث اليك بهذه (الاضمامة) المشار اليها اذ انه في حوزتي نسختها الوحيدة اقدم اليك واحدة منها عسى العثور على نسخة أخرى قريباً بعض الاعداد المتوفرة لديّ ما دمت معنيّة بالاطلاع

على الموضوعات الاخرى ، وقد سرني اهتمامك بالمجلة فهي مجلتي العزيزة المفضلة .

بعث الي ساي برسالة طويلة آملاً في ضامرع (ايكوه العام الجديد فأي مصالحة ووصل للقطيعة غير المتعمدة) كما قال . وقد رحبت به وسررت بمبادرته الجميلة . كان عندي دائماً استعداد نفسي لان ينتهي بنا الامر الى صداقة هادئة متسامحة لا تشوبها الشوائب . وهكذا نستطيع ان نقول الان ان التجربة كانت رائعة البداية والنهاية . أما تلك الارتباكات القليلة التي اعترضتنا فهي من الامور الطبيعية في كل العلاقات الانسانية كما اعترف انوار في رواية "سوس الخشب" للكاتبة الجزائرية ماري كورللي يسأل صديقه صديقه عما اذا كان مستعداً لان يغفر له ما قد يرتكبه من خطأ معه . فكر الصديق برهة ثم قال : انني على استعداد للصفح عن اخطاء كثيرة لأصدقائي ، ولكنه هناك امور لا يمكنني ان اغفرها او ان اصفح عنها ، منها العبث بالثقة عن عمد .

واعتقد انني اكثر تسامحاً من بطل الرواية .. ولا ادري ان كان هذا ينم عن ضعف في طبيعتي ام عن قوة . ما رأيك انت يا بربا ؟

اكتبي لي حين يكون لديك وقت وامزاج . اعرف انك صاحبة مسؤليات كثيرة : عمل ، دراسة الخ .. فافال

٢

الله وأخذ بيدك فيما تطمح إليه من الأماني
الكبيرة في مجال الدراسة. أنك تتمتع بتفكير
إيجابي جيد، ومن عدة نواحي. أنني سعيدة بصداقتك.
أتمنى أن تكون العائلة بخير وأن يكون
كل شيء على ما يرام حتى يتوفر لك الجو الملائم للدرس
والبحث في مجال أطروحتك للدكتوراه.
اشتاقك وأقبلك.

١)

هل السلحفاة
ارفقت بالسلحفاة
التي
تمشي ببطء؟

٢)

اهنئك بترقيتك
لقسم رابح شؤون
الساعة

١٩/١١/١١

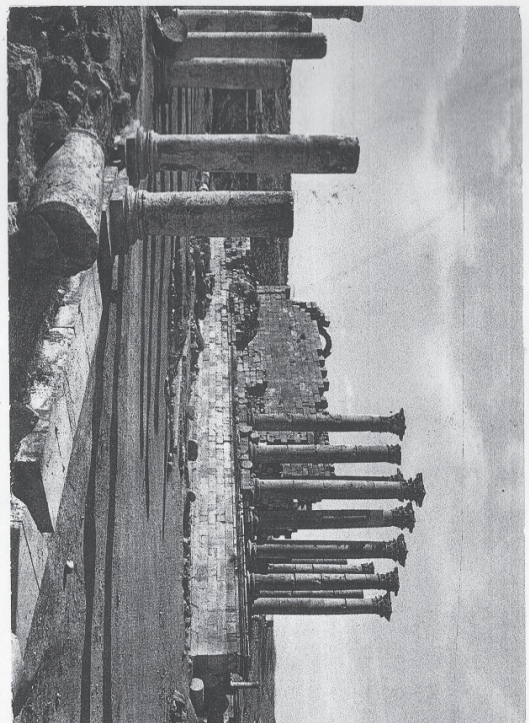

نظرة عامة لمدينة نابلس
View From Nablus

Printed by An-Nasr Printing Press Nablus

زيارة الغالية - كلمة ناطفة ، وصلت الرسالة مع الف
شكر . سأكتب اليك مطولاً . الامر مشابه مثل
الاخبار هنا ، كنا نعاني حالة كئيبة من الهبوط
المعنوي . فقد "السلام" اهدافه بعيدة التوسعية:
استمرار السيطرة على الارض والمياه والسكان
ومصادر المياه . الأخبار السيئة تتوالى ، ونحن
نواجه قصف الاقتصاد من الجذور وتفقدانه الهوية .
لدينا "الادارة الذاتية" شيئاً أكثر من ادارتنا
لشؤوننا المحلية - ادارة للسكان وليس للارض - التي
اصبحت تحت السيطرة الاسرائيلية مئة بالمئة .
بعض اصبحنا اقلية كالاكراد في ايران والعراق او
باسك اسبانيا .. اقلية تابعة ومملوكة لدولة
تمارس سيادتها على الارض .
نسبة من ١٢ الطور القليلة فقط لا تصدق من
وصول رسائل الغربة وانا لم يرجع الى
مزاجي لاتحدث اليك طويلاً . كيف صحة سيدة البيت؟
اتمنى ان اكتب اخباراً سعيدة . لو عرفت بوجودك
في نابلس لسعيت الى لقائك . كتبت هذه امس
بمناسبة وصول رسائل بطاريات . نابلس في ٢ مايو ١٩٧٩/٥/٢

يا غالية يا زيا - شكراً للبطاقة . ارجو
ان تكوني قد استمتعت بمشاركتك في المؤتمر
الدولي الاسطر . ترى ماذا قلتم وماذا فعلتم ؟
جئت عمان (لزيارة عمل) وقصيرة . سأعود غداً
الى نابلس لمواصلة الإشراف في قاعة العلوم .
لا ريب في انك تتابعين عن اخبارنا هذه
الايام . اخبار لا تسر الصديق بل تسعد
العدو . هذا قدرنا . اشتركت لك في مجلة الجديد
الاشتراك يبدأ من الشهر السابع حزيران ١٩٧٩ واود
ان الفت نظرك الى كون المجلة تصدر دائماً بعد
موعدها بشهرين او اكثر . وغالباً ما يدخل عددين
في عدد واحد حسب ازمة الورق والوقت ،
فالجماعة يصدرون اكثر من مجلة وجريدة .
مازلت في رأس السنة . لك ولعائلة محمود
تمنياتي الطيبة راجية ان يكون العام الجديد عام
خير وعطاء وسعادة بلقاء ولا هلاك .
سابعث اليك بما ترغبين . سأحاول بقدر
قصارى جهدي شريط كاسيت وارسله اليك
من الرأس والعيبة . لك حبي ايتها الغالية

حنا

١٩٧٩/١١/٢٩

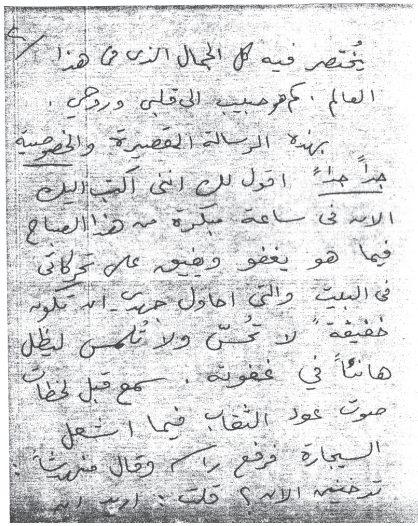

يقتصر فيه كل الجمال الذي في هذا
العالم، كم حبيبي الى قلبي وروحي.
بهذه الرسالة القصيرة والخصوصية
جداً جداً اقول لك اني احبك الليلة
الاربعاء في ساعة مبكرة من هذا الصباح
فيما هو يغطو ويضيء على تحركاتي
في البيت والتي احاول جهدي ان تكون
خفيفة لا تحس ولا تلمس لاظل
هانئاً في غفوته. سمع قبل لحظات
صوت عود الثقاب فيما اشعل
السيجارة فرفع راسه وقال مذهولاً:
ترتيبه الاربعاء؟ قلت: اوه اسف

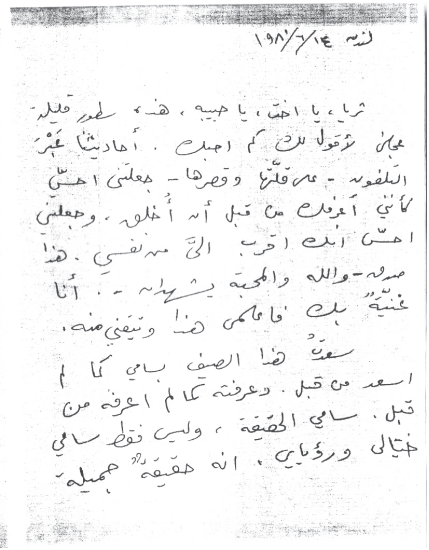

لندن ١٩٨١/٦/١٤

ثريا، يا اختي، يا حبيبة، هذه رسالة قليلة
مجال تقول لك كم احبك. أحاديثنا عبر
التلفون - مهما قلت وقصرها - يجعلني احس
كأني أعرفك من قبل أن أخلق، ويجعلني
احس انك اقرب الي من نفسي. هذا
صدقه - والله والمحبة يشهدانه -. أنا
غنية بك فاعلمي هذا وتيقني منه.
سعدت هذا الصيف بأمي كما لم
اسعد من قبل. وعرفتها كما اعرفك من
قبل. أمي الحقيقة، وليس فقط أمي
خيالي ورؤاي. انه حقيقة جميلة

نابلس ١٩٩٣/٢/١٩

الاخت الغالية ثريا

تحيات الاخوة والمحبة . طالت اقامتي في عمان على غير ما كنت اتوقع. عدت قبل اربعة ايام فقط ووجدت رسالتك وسعدت بلقائك ثانية من خلال سطور هذه الرسالة الجميلة بكل معاني جمالك وصفائك ونقاء سريرتك .

لم اكن اقل منك رغبة في اللقاء مرة واخرى وثالثة ورابعة الخ .. ولكني كنت دائما اشعر بالحيرة بينه هذه الرغبة الصادقة وبين خوفي منه ان اضعك تحت ضغط حصار مرهقه لك ، فقد كنت ادرك تماما توزعك بين العمل وواجبات العلاقات العائلية والصداقات التي لا مهرب من الاستجابة لمتطلباتها .

على كل الاحوال كنت حريصة جدا على التكفير عما سلف من موقفي السيئ تجاهك في لندن ، كنت مثقلة بالشعور بالذنب ، ومن هنا كان لا بد لي من الطلوع على بعض الخواطر لتنبيهي بنفسك وتحاميني وتعذيري بالرغم من انه إغفال الموضوع كان اهم عندي من فتحه . على اني كنت سعيدة بشعورك انه لديك قدرة على الفهم والتفهم وادراك الحقيقة التي تقول انه لحالات الغضب لا يُحاسب عليها . لقد انتهيت الى يقين اكد لي انك خير صديقة يمكنه ان يصطفيها قلبي ، واني استطيع ان افضي اليك دون حرج بكل ما بداخلي ، فاحدث بارتياح وبعد تحفظ ، وابرز امامك نقاط ضعفي ونواحي نقصي وانا متأكدة من انك على استعداد لتقبل وتفهم اخطائي الانسانية . لقد اعطيتني الثقة بانك صديقة حقيقية تعتبر نفسك انها هي أنا ، وانه لا يمكنه في يوم من الايام ان تأخذ ضدي ما أفضي به اليها كما حدث لي مع الأخريات من الصديقات الغادرات . لقد كانت قصتي مع الصداقات قصة فشل واحباط ، انتهت بي منذ سنين الى تكوين علاقات لا تذهب بعيدا في العمق ، بل تظل تطفو على السطح ، انه النفس لتتعب وهي ترى نفسها في المشاعر والعواطف حتى بهذه افراد الاسرة . ما اصعب ان تثقل عليك هموم الحياة فلا تجد من حولك القلب الحاني الذي يمكنه ان تفضي اليه بما يثقلك ، كل واحد لا يهتم الا بذاته وبارضاء هذه الذات دون الاهتمام بالاخر . حولي صديقات على جانب كبير من الطيبة والصحة ولكنهن قاصرات فكريا ، وهذا الخط من الناس يبعث على الملل وبعد نطاق مجالسته اكثر من نصف ساعة . انه اشارة الفكرية هي عصب الحياة الاكثر اهمية في عالم الصداقات . من هنا تبعث سعادتي بك وبتقبل وبمحبتك .

لقد عشتي عمر ذلك السر الكبير في حياتك ، وكنتُ وانت تعيشينه أصلح جمالاً وجدارةً واكبر
لذلك الانسان العظيم الذي بدا لي من خلالك انه جدير بهذه العاطفة الرائعة والتي وقفتُ
عليه وهدت طيلة سنوات عديدة من مسيرة حياتك ، دورك الأصل في الوصول الى الغاية
التي نبتغيها كلانا كما . انت محفوظة بإصرارك بالرغم من ظلام الحياة لك . حسبك انه تجربتك
لم تشتبك الى اكتشاف حقيقة تعيسة وحقيقة ... اكتشاف ان الشخص
الذي احببته لا يستطيع ان يرتقي الى مستوى العاطفة التي أثارها فيك ، لأنه تطلّع
وضحالة . ليس هناك أبعث على الضيق والندم من وقوعنا بين براثن تجربة عمياء وتعلقنا
مع الشخص الخطأ the wrong person . توقه الحياة في أعمقنا ونحن في حالة نفسية معيّنة
تجلعنا عرضة لإصابة الاكتئاب كما لو كنا ... تحت تأثير تنويم مغناطيسي ، ونتوهم ان هناك
سراً هنيئاً يشدنا الى ذلك الشخص ، ثم نستيقظ فجأة لنكتشف ان السر لا يستحق
المعرفة ، لأنه لا وجود له الا في اوهامنا . ليس هناك افجع من اكتشافنا لحقيقة
كوننا اننا اغا كنا نحب "بدلة انيقة" فقط ليس في داخلها الا الفراغ .

على أنني - وانا أعبّر لك عن حبكما النادر في هذا العصر الذي يتسم إنسانه
بسعة الخواء - اقول لك ايتها الصديقة حرام عليك ان تظلمي نفسك الى هذا
الحد ، او ان تعيني الحياة على ظلمك لك . هناك لحظات في العمر تمحضنا بلاءها وجمالها
ان الوجود يحطيا نفسه اذا عرفنا كيف نأخذه . نحن نحيا الحياة مرة واحدة ، ونحن
لا نستطيع الهرب من حقيقة ان الانسان كائن من روح وجسد ، وان سعادته في
تحقيق وجوده الماثل الجانب وجوده الروحي ، فلماذا ترفضين فكرة الزواج بإنسان
آخر اذا وُجد الشخص المناسب لك ؟ انك انسانة رائعة تشتهي الحياة ولديك قدرة
عظيمة على إسعاد الآخرين - وهذا ما يلمسه خلال لقاءاتنا - . تخطر ببالي الآن أدبية
فلسطينية موهوبة ، عاشت في الخمسينات ، ثم انقطعت اخبارها بعد حرب ١٩٤٨ بسبب
بقائها في مدينتها الناصرة بفلسطين . بعد زوال الحدود بيننا وبين اسرائيل بفعل هزيمتنا
عام ١٩٦٧ زارتني تلك الانسانة الأدبية وكانت قد انتقلت مع زوجها القسيس إلى
الارجنتين في مدينة بوينس ايرس حيث استقرا هناك بعد الاحتلال الاسرائيلي . ولقد تبادلنا
اكثر من زيارة ، هنأتني في احداها عن قصة حب كبير راهم قبل زواجها بسنوات ،
ولم يكتب لذلك الحب النهاية المنشودة - مثل قصتك تماماً - غير ان ذلك لم يمنعها من قبول
الزواج بالقسيس وقد انجبت له اربعة اولاد عدا ما اذكر ، وبالرغم من الزواج وانجاب الاطفال

فهي لا تزال مقيمة على هذا الساحل ، وهي تشعر انه روحك لا تزال غريباً ، ومملوكاً لذلك الرجل الذي احببته ، وستبقى كذلك حتى نهاية رحلة العمر .

فاذا كانت لديك مقدرة على تحمل مسؤوليات الزواج وقيوده وتناقض الحياة — وهي القدرة التي تعوزني وافتقد البك افتقاراً كبيراً — فلا تتركي هذه الغربة الانسانية تفوتك .

العمل على إكمال الدكتوراه شيء مهم وجميل ويجب أن يتم ، لاسيما وانه لديك القدرة الطبيعية على الاستمرارية في الدرس والبحث والسير قدماً فيما توطنين النفس عليه . وهذه واحدة من مزاياك الحسنة الكثيرة .

خطر ببالي الاستاذ غسان كنفاني . وتذكرت انه الاديب الفلسطيني الوحيد الذي زارني بعد حرب ١٩٦٧ وكان يرافقه شقيقه لما عرفت منه انه يدرس في احدى جامعات امريكا ، وانه في زيارة للأهل قصيرة . لا اذكر الاسم شقيقه تحديداً ولكنه هل يحتمل انه يكون هو نفسه غسان ؟ لا ادري .

يحزنني امر ابنه اخيك ثائر . يا إلهي ، لماذا تحدث مثل هذه المآسي ؟ وما هو ذنب هذا الانسان البريء ليُبتلى منذ طفولته بما أُبتلي به ؟ اسئلة لا أستطيع انا اجد لها هدأة ، وحين ارفع نظري نحو السماء لأبحث عن وجه العدالة السماوية فلا ارى الا ظلاماً وصمتاً رهيباً .

شقيقتي حنان أحبّتك ، ولفت نظرها جمال صوتك وانت تحدثينه ، هنيئاً يا ثريا ، انه لصوتك الناعم الرخيم فعل الحب الحميمة للاعصاب . أما عن هانية ، ابنة اختي ، فقد شكرتك كثيراً على الهدية الجميلة . بالتأكيد سوف تسعد حنان وانشغل اذا حظيتا بزيارة منك في المرة القادمة .

شكراً لوفائك بالوعد وحتم ذكر الموضوع للاطفي الاخر . انني أحب ان تنسى لغة الفضة جملة وتوصيفاً ، وانه تظل مدفونة في زوايا الماضي المنسي .

آمل ان نلتقي في المستقبل . انه معروفك عندي رسخت مكانتك في قلبي ، وانني لسعيدة بصداقتك واحتلالك هذه المكانة . فاقبليني صديقة مخلصة يا غالية

فدى طوقان

فدوى طوقان مع ثريا حداد في عمان، (1982)

فدوى طوقان مع ثريا حداد أمام بيت ثريا بمدينة سلفرسبرينغ- ميرلاند (1982)

الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات يوشح فدوى طوقان في القاهرة خلال أيام فلسطين الثقافية والفنية احتفالاً بمرور 25 عامًا على قيام الثورة الفلسطينية (10- 16 يناير 1990)